

مدخل تمهيدي:

المسار التاريخي للبيئة الطبيعية

أولاً: مفهوم البيئة والطبيعة

1- مفهوم البيئة

2- مفهوم الطبيعة

ثانياً: البيئة الطبيعية عبر العصور

1- البيئة الطبيعية في العصر الجاهلي

2- البيئة الطبيعية في العصر الإسلامي والأموي

3- البيئة الطبيعية في العصر العباسي

4- البيئة الطبيعية في العصر الحديث

الفصل الأول

جبران خليل جبران - الإنسان والمبدع -

- أولاً: مولده ونشأته
- ثانياً: حياته ورحلاته
- ثالثاً: شخصيته وثقافته
- رابعاً: أدبه
- خامساً: لغته وأسلوبه
- سادساً: آثاره ومؤلفاته
- سابعاً: وفاته

الفصل الثاني:

البيئة الطبيعية في شعر جبران خليل جبران - دراسة وصفية تحليلية-

أولاً: حضور الطبيعة في شعر المهجريين
الشماليين
ثانياً: تجليات البيئة الطبيعية في نماذج من
شعر جبران

مقدمة

الفهرس

شكر و عرفان :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إلى الأستاذ: "تيس ناصر محمد السني"

إليك ...

فتحت عيني على كنوز اللّغة، وأعلامها الأفاذا...

ساعدتني، وذلك لي كثيراً من العقبات التي اعترضتني خلال الدراسة

زودتني بروح العمل، والعزيمة، والنصائح السديدة

أتقدم إليك ...

بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل

والأمل الحالم بأن يكأك الله بعين رعايته

إلى أساتذتي:

بقسم اللّغة العربية وآدابها

شكراً على النصائح والإرشادات

والى طاقم مكتبة النجاح (المسعود ، السهلي ، يونس)

سائلةً المولى عزّ وجلّ بأنّ يحفظكم جميعاً، وأنّ يجزيكم خير الجزاء

فهرس الموضوعات

الصفحة	العنوان
أ	مقدمة
	المدخل التمهيدى: المسار التاريخى للبيئة الطبيعية
07	أولاً: مفهوم البيئة والطبيعة
07	1- مفهوم البيئة
09	2- مفهوم الطبيعة
10	ثانياً: البيئة الطبيعية عبر العصور
10	1- البيئة الطبيعية فى العصر الجاهلى
15	2- البيئة الطبيعية فى العصر الإسلامى والأموى
20	3- البيئة الطبيعية فى العصر العباسى
24	4- البيئة الطبيعية فى العصر الحديث
	الفصل الأول: جبران خليل جبران- الإنسان والمبدع
38	أولاً: مولده ونشأته
42	ثانياً: حياته ورحلاته
43	1- فى بوسطن
44	2- العودة إلى لبنان
45	3- عودته إلى بوسطن
47	4- جبران فى نيويورك
48	5- جبران والرابطة القلمية
52	ثالثاً: شخصيته وثقافته
52	1- شخصيته
56	2- ثقافته
61	رابعاً: أدبه
72	خامساً: لغته وأسلوبه
72	1- لغته

75	2-أسلوبه
80	سادسا: آثاره ومؤلفاته
80	1-مؤلفاته بالعربية
85	2-مؤلفاته بالانجليزية
88	سابعا: وفاته

الفصل الثاني: البيئة الطبيعية في شعر جبران خليل جبران

-دراسة وصفية تحليلية-

92	أولا: حضور الطبيعة في شعر المهجريين الشماليين
98	ثانيا: تجليات البيئة الطبيعية في نماذج من شعر جبران
133	خاتمة
136	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس الموضوعات
	ملخص البحث بالعربية
	ملخص البحث بالانجليزية

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

- 1- إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة للنشر والتوزيع الأردن، ط3، د.ت.
- 2- ابن الرومي، ديوانه، تح حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط3 2003م، ج02.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م.
- 4- أبو القاسم الشابي، ديوانه ورسائله، شرح مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت ط2، 1994م.
- 5- أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، الدار العالمية للشرح د.ط، 1993م.
- 6- أحمد عوين، الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية ط1، 2001م.
- 7- الأخطل، ديوانه، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 1994م.
- 8- إخلاص فخري عمارة، زهرات من رياض المهجر، دار الأمين، القاهرة، د.ط د.ت.
- 9- امرؤ القيس، ديوانه، تح أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت.
- 10- امرؤ القيس، ديوانه، شرح المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004م.
- 11- أنس داود، رواد التجديد في الشعر العربي الحديث، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، د.ط، د.ت.
- 12- أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية (خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث)، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1985م.
- 13- إيليا أبي ماضي، ديوان الجداول، دار العلم للملايين، د.ط، 1986م.

- 14- إيليا أبي ماضي، ديوان الخمائل، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، 1987م.
- 15- إيليا أبي ماضي، ديوان تير وتراب، دار العلم للملايين، ط1، 1960م.
- 16- إيليا الحاوي، الرومنسية في الشعر العربي والغربي، دار الثقافة، بيروت، د.ط د.ت.
- 17- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1983م ج02.
- 18- إيليا الحاوي، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م، ج05.
- 19- البحتري، ديوانه، تصحيح عبد الرحمن أفندي البرقوقي، مطبعة هندية مصر، ط1 1921م، ج01.
- 20- البحتري، ديوانه، شرح كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت مجلد 01.
- 21- جبران خليل جبران، الأرواح المتمردة، دار العرب للبستاني، 20 ش الفجالة القاهرة، د.ط، د.ت.
- 22- جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، دار تلاتنيقيت للنشر والتوزيع، الجزائر د.ط، د.ت.
- 23- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، جمع أنطوان القوّال، دار الجيل، ط1، 1994م.
- 24- جبران خليل جبران، المواكب، دار تلاتنيقيت للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت.
- 25- جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، دار الجيل، بيروت د.ط، 2002م.
- 26- الجوهري، الصحاح، تح عبد الغفار عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1989م ج01.
- 27- حسان بن ثابت، ديوانه، مطبعة الدولة التونسية، د.ط، 1281هـ.
- 28- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، دار الجيل، بيروت ط1، 1986م.

- 29- خليفة محمد التليبي، الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، د.ط، د.ت.
- 30- خليل أحمد خليل، المعرفة الاجتماعية في أدب جبران خليل جبران، دار ابن خلدون بيروت، 4/4، 1981م.
- 31- خليل برهومي، الأعلام من الأدباء والشعراء، إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والجمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م.
- 32- ذو الرّمة، ديوانه، شرح عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1 2006م.
- 33- الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1998م، ج01.
- 34- سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2002م.
- 35- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط6 د.ت.
- 36- صابر عبد الدايم، أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1993م.
- 37- طرفة بن العبد، ديوانه، شرح سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط 2004م.
- 38- عباس بن يحيى، مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة، د.ط، د.ت.
- 39- علي نجيب عطوي، الأعلام من الأدباء والشعراء ذو الرّمة شاعر الحب والطبيعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م.
- 40- عنتر بن شداد، ديوانه، شرح نفقة خليل الخوري، مطبعة الآداب، ط4، 1893م.
- 41- عيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت.
- 42- فؤاد القرقوزي، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدبي العربي الحديث وأهم المؤثرات الخارجية فيها، الدار العربية للكتاب، د.ط، 1968م.

- 43- فايزالترحيني، الدراما ومذاهب الأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1988م.
- 44- الفرزدق، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1980م، مجلد02.
- 45- فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، مطبعة اليازوري عمان، ط1، 2000م.
- 46- فوزي عطوي، جبران خليل جبران، عبقرى من لبنان، دار المعارف، بيروت د.ط، د.ت.
- 47- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3 1978م، ج01.
- 48- كاظم حطيط، أعلام ورواد الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1 2003م، ج01.
- 49- كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، مكتبة الدار العربية للكتاب ط3، د.ت، ج02.
- 50- كامل سليمان، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م، ج01.
- 51- محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر، ط2، 2006م.
- 52- محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر، عمان، ط2 2006م.
- 53- محمد النويهي، الشعر الجاهلي - منهج في دراسته وتقويمه، تر أحمد نعيم الكراعي دار المعرفة، الإسكندرية، د.ط، 1985م.
- 54- محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2) الرومانسية الغربية، دار تويقال للنشر المغرب، ط1، 1990م.
- 55- محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد) منشورات اتحاد الكتاب العربي، د.ط، 1999م.

- 56- محمد زكي العشماوي، أعلام في الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشعر المسرح، القصة، النقد الأدبي)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 2005م.
- 57- محمد عبد المنعم خفاجي، حركات التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء الإسكندرية، ط1، 1990م.
- 58- محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجيل بيروت، ط1، 1992م، ج01.
- 59- محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2 1973م.
- 60- محمد غنيمي هلال، الرومانيقية، نهضة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 61- محمد فتوح محمد، الحداثة الشعرية (الأصول والتجليات)، دار غريب، القاهرة د.ط، 2007م.
- 62- محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، العدد 16 2009م.
- 63- مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية، د.ط، 1998م.
- 64- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، القاهرة، د.ط، 1994م.
- 65- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط4، 2004م.
- 66- ميخائيل نعيمة، الغربال، نوفل، بيروت، ط15، 1991م.
- 67- ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، دار صادر، بيروت، ط1، 2002م.
- 68- نبيل كرامة، جبران خليل جبران وآثاره في الأدب العربي (دراسة، نقد، تحليل نصوص)، منشورات دار الرابطة القلمية، ط1، د.ت.

- 69- نزار بريك هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران، دار رسلان للطباعة والنشر، دمشق، د.ط، 2008م.
- 70- نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1970م.
- 71- وضاح فخري طالب، جبران خليل جبران بإيجاز، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت ط2، 2002م.
- 72- يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي - الحنين إلى الأوطان -، جامعة إربد الأهلية، الأردن، ط1، 2008م.
- 73- يوسف حسن نوفل، موسوعة الشعر العربي الحديث والمعاصر، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005م.

إنّ الشعر قديم في فطرة العرب، فهم يعتبرونه مادة وفيّة و مجال واسع لظهور الإحساس والمعرفة والتصوير لمظاهر الطبيعة حيث كانت الطبيعة من أهم مصادر الإبداع الفني في معظم عصور الأدب، وهذا ما يُحيلني إلى القول بأنّ الطبيعة كانت وما زالت الملهم الأول لأرباب الفن لاسيما الشعراء، ذلك أنّ الطبيعة ترافق الشاعر بمظاهرها طوال حياته، وهو بالضرورة يستوحي منها عناصر تجربته الشعرية.

إذا كانت الطبيعة قد سحرت شعراء العربية من قديم الزمان، وراعتهم مشاهدها وبهرتهم مظاهرها فحلّق خيالهم في أجوائها، وانطلق بين جداولها ومروجها، وجنح فوق رباها وخمائلها، مأخوذاً بما أودعه الله فيها من جمال رائع، وفتنة آسرة، وحسّ فياض ولكنّ كثيراً منهم كان يقف على ألوانها الزاهية، ومفاتها الحسية، فلا يعدو أنّ يصف الألوان والزراكنش وكل ما هو مُلفت للانتباه، فإحساسه بها يتجاوز حدود الآذان والعيون والأنوف، يُشبه اللون باللون والطعم بالطعم، والرائحة بالرائحة، ونظرتة تقوده إلى مظاهرها المختلفة يؤلف بين أشتات الحس بفكره وخياله.

وإذا كان وصف الطبيعة في الشعر العربي باباً طرقه معظم الشعراء، واتسع المجال فيه، ولم يخل ديوان من دواوينهم إلّا وحفل بمظاهر الطبيعة، وكذلك كان الحال بالنسبة للعصور الحديثة، وعليه يمكنني القول بأنّ لجوء الشعراء إلى الطبيعة، وتغنيهم بمظاهرها كان نتيجة لإدراك معالم الجمال في تلك البيئة التي يعيش فيها هذا الشاعر أو ذاك حتى غدت مصدراً أساسياً لجُلّ الشعراء، وهذا ما ولد حنينهم الآسن والشديد لتلك المناظر الخلّابة، واندفاعهم أكثر إلى أحضانها وتصوير كل مشاهداتهم من الطبيعة سواءً كانت طبيعة حية أو صامتة وكأنّ العلاقة بين هؤلاء الشعراء والطبيعة كعلاقة الأم بأولادها.

وفي هذا المدخل سأبرز هذا التغني والتصوير الذي أبدع فيه هؤلاء في مختلف العصور الأدبية، لكن قبل ذلك سأتطرق إلى ضبط كل من المصطلحين البيئة والطبيعة حتى يتسنى لي تقديم أوضح ودقيق بكل معنى الكلمة، ومحاولةً مني لوضع الموضوع في قالبه الحقيقي.

أولاً: مفهوم البيئة والطبيعة:

1- البيئة:

جاء في المعجم الوسيط ما يلي:

البيئة: هي المنزل والحال، ويُقال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية.

والمباعة: المنزل، ويُقال: هو رحيب المباعة: سخيّ واسع المعروف.¹

وجاء أيضاً في المعجم الوجيز:

البيئة: المنزل، وما يحيط بالفرد أو المجتمع، ويؤثر فيهما. يُقال: بيئة طبيعية، وبيئة

اجتماعية، وبيئة سياسية.²

وفي لسان العرب "لابن منظور" يقول:

البيئة: هي الاسم للفعل تبوأ أي: نزل وأقام، وتبوأه: أصلحه وهياه، وقيل: تبوأ فلان

منزلاً: إذا نظر إلى أسهل ما يرى وأشدّه استواء، وأمكنه لمبئته، فاتخذه، والمعنيان

قريبان.

والمباعة: معطن القوم للابل، وآبائه منزلاً وبوأه إياه فيه، بمعنى هياه له وأنزله ومكّن

له فيه.³

والاسم البيئة.

واستبأه: أي اتخذه مباءةً.

وتبوات منزلاً أي نزلته، وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ

وَ الْإِيمَانَ)⁴. جعل الإيمان محلاً لهم على المثل، وقد يكون أراد.

¹ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط4، 2004م، ص75.

² - المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، القاهرة، د.ط، 1994م، ص66.

³ - ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م، ج1، ص531.

⁴ - سورة الحشر، الآية (08).

والبيئة والباءة والمباة: المنزل، وقيل منزل القوم حيث يتبؤون من قبل وادٍ أو
سند جبل.

وباعت بيئته سوء: على مثال بيعة، أي بحال سوء، وإِنَّهُ لَحَسَنُ البيئَةِ.¹

و يقول الجوهري في "الصاح":

المباة: منزل القوم في كل موضع، ويُسمى كِنَاس الثور الوحشي: مباة، وكذلك
مَعَطِن الإبل.

وتبؤأت منزلاً؛ أي نزلته، وبؤأت للرجل منزلاً وبؤأته منزلاً بمعنى، أي هيأته ومكنت له
فيه، واستبأه أي: اتخذ مباة.²

وفي القاموس المحيط "الفيروز أبادي" يقول:

البيئة: مشتقة من (البوء) وهو القرار، أو اللزوم، وباء إليه رجع، أو انقطع، وبؤت به
إليه وأبأته وبؤأته والباءة. وبؤأه منزلاً وفيه أنزله كأبأه، والاسم البيئة بالكسر والمباة:
المنزل كالبيئة والباءة.³

ويلاحظ المتدبر للقرآن الكريم وجود الكثير من الآيات القرآنية التي جاء بها المعنى
اللغوي للبيئة نحو قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)⁴ وقوله عز وجل: (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا)⁵ وقوله عز شأنه: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
بُيُوتًا).⁶

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص531-532.

² - الجوهري، الصاح، تح عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1989م، ج1، ص37.

³ - الفيروز أبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3، 1978م، ج1، ص08-09.

⁴ - سورة يوسف، الآية (56).

⁵ - سورة الأعراف، الآية (74).

⁶ - سورة يونس، الآية (87).

2- الطبيعة:

جاء في المعجم الوسيط ما يلي:

الطبيعة: مزاج الإنسان المركب من الأخلاط، و**الطبيعة:** القوة السارية في الأجسام التي بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي.

وطبيعة النار أو الدواء أو نحوه: ما سخر الله مزاجه. والجمع: طبائع.

و**(علم الطبيعة):** علم يبحث عن طبائع الأشياء، وما اختصت به من القوة والطبائع

الأربع عند الأقدمين: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

و**الطبيعي:** نسبة إلى الطبيعة.¹

وجاء أيضاً في المعجم الوجيز:

الطبيعة: السجية، ومزاج الإنسان المركب من الأخلاط، (ج) طبائع.

و**الطبيعي:** يقال: أمر طبيعي: غير متكلف.²

وفي لسان العرب "لابن منظور" أجد:

طبع: الطبع والطبيعة: الخليفة والسجية التي جُبلَ عليها الإنسان.

و**الطباعُ:** كالطبيعية، مؤنثة، وقال "أبو القاسم الزجاج": الطباع واحد مذكر كالتحاس

والنجار، قال "الأزهري": ويجمع طبع الإنسان طباعاً، وهو ما طُبِعَ عليه من طباع

الإنسان في مأكله، ومشربه وسهولة أخلاقه، وخزونتها، وعُسْرَها أو يُسْرَها، وشدته

ورخاوته ويُخله وسخائه. وحكي "الحياني": له طابعٌ حسن بكسر الباء، أي طبيعة.³

ويقول الجوهري في "الصاح":

¹ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص 550.

² - المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص 386.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 118.

الطبعُ: السجية التي جُبلَ عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدرٌ، والطبيعة مثله وكذلك الطباعُ.

والطبعُ: الختمُ، وهو التأثير في الطين ونحوه.¹

والطبعُ بالكسر: النهزُ والجمع أطياعُ.²

وفي أساس البلاغة "اللزْمَخْشِرِي" ورد ما يلي:

طبع: طبع السيف والدرهم: ضربه، وهو طباع حسن الطبّاعة... وقد طُبِعَ على

الأخلاق المحمودّة، وهو كريم الطبع والطبيعة والطباع والطبائع.

وهو متطبع بكذا، وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة.³

والى غير ذلك من المفاهيم كون تعريف البيئة والطبيعة لا يتفقان عند مفهوم محدّد بل

تتعدد المفاهيم حولهما.

ثانياً: البيئة الطبيعية عبر العصور:

1- الطبيعة في العصر الجاهلي:

إنّ شعر الطبيعة أصيل وقديم في الأدب العربي، وقد عرّفه العصر الجاهلي في أكثر

من مجال وحال وبرزت بذلك البيئة الطبيعية العربية في حالات شتى كبساطة البادية وجفاف

الصحراء، وصفاء الليل وصخب السيل، وتلاعب الريح بالرمل، ووحشة الأطلال.⁴

وعليه يمكن القول بأنّ البيئة في العصر الجاهلي كانت غنية بمظاهر الطبيعة التي

ألهمت كثيراً من الشعراء بسحرها وأسلوبها، وجمالها، حتى صارت مصدراً أساسياً استقى

واستفاد منه الشاعر الجاهلي في إبداعه وفنّه فأنجوا على إثر ذلك صوراً فنيّة غايةً في الدقة

والإبداع لذلك تحسب الطبيعة مصدر الإلهام الأول والأهم للشعراء الجاهليون.

¹ - الجوهري، الصحاح، ج2، ص1252.

² - المصدر نفسه، ص1253.

³ - الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ج1 ص593-

594.

⁴ - كاظم حطيّط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2003م، ج1 ص133.

وعلى أية حال فقد لعبت الطبيعة دورًا هامًا في الشعر، في كل عصوره ولاسيما في العصر الجاهلي "فكثيرًا ما اعتنى الأدباء العرب منذ هذا العصر بالنظر إلى ما يحيط بهم من إطار طبيعي، وكثيرًا ما حاولوا الإشارة إلى مواطن الجمال فيه، وكثيرًا ما حاولوا أيضًا تشخيص الطبيعة بقمرها، ونجومها، وشمسها ونوارها وليلها وريحها، فخاطبوا وجعلوها تشاركهم أفراحهم، وأقراحهم"¹. فقد وسَّعت مداركهم، ونمَّت أخيلتهم وأرهفت أحاسيسهم، فالشاعر الجاهلي أو قلَّ الشعراء الجاهليون كانوا يصدرن عن الطبيعة في أشعارهم ولهذا فهم لم يتركوا كبيرةً أو صغيرةً في صمتها أو حركتها إلاَّ وحاولوا رسمها في أشعارهم، فقد صوَّروا خلواتها بكتبانها، ورمالها وغدرانها وغيثها وسيولها وخصبها وقحطها، ونباتها وأشجارها، وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها ما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه.²

كما هو الحال في شعر "امرؤ القيس"، و"طرفه بن العبد"، و"زهير بن أبي سلمى" و"عنترة بن شداد"، والصعاليك "كالشنفرى" وغيرهم.

وأجد "امرؤ القيس" يقول في وصف الطلِّ:

لمن طلَّلُ أبصرته فشجاني

كخط زُبورٍ في عُسيب يمان³

ويقول:

"ألا عم صباحًا أيُّها الطلُّ البالي

وهل يعمن من كان في العُصْرِ الخالي"⁴

¹ - فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، الدار العربية للكتاب، د.ط، 1968م ص138.

² - علي نجيب عطوي، الأعلام من الأدباء والشعراء، نو الرّمة شاعر الحب والطبيعة، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1994م، ص54.

³ - امرؤ القيس، ديوانه، تح أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت، ص85.

⁴ - المصدر نفسه، ص27.

وأجده كذلك في إحدى قصائده مسؤولاً عن توزيع المطر، فهو يتحدث بشكل مباشر عن انتظار هذا المطر مع أصحابه بعد أن طلب العون والمساعدة، ثم إنّه سقى به من أراد حتى ولو كان بعيداً عنه يقول:

أعني علي برقٍ أراه وميض
يضيئ حَبِيئاً في شمَارِيخٍ بيضٍ
قعدت له وصحبتني بين صَارِحٍ
وبين تَلَاعٍ يَتَلَثِّفُ العَرِيضِ
وأضحى يسحّ الماءَ عن كلِّ فَيْقَةٍ
يجوز الضَّبَابُ في صَفَاصِفٍ بيضٍ
فأسقي به أختي ضعيفةً إذا نَأَتْ
وإذا بَعَدَ المِزَارُ غيرَ القَرِيضِ¹

"فامرؤ القيس" متأمل، منتظر سقوط المطر الذي يسبب الحياة للأشجار والنبات والإنسان، فهو قد رسم صورة المطر الجافة بكافة جوانبها وما تثيره في نفس الشاعر والإنسان عامةً، "وكذلك اهتمام العرب بالمياه وحرصهم على المحافظة عليها دفعهم إلى الاهتمام بالسحاب، والمطر، وما يتعلق بهما من برق ورعد وصقيع فعرفوا الأنواء بذلك ونجوم الاهتداء... ومن هنا وجدنا تطلعهم نحو السماء".² فكان من ذلك حديثهم عن طول الليل يقول "امرؤ القيس":

فيالك من ليل كأنّ نجومه
بكلّ مغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بيذُبُلِ³

وفي موضع آخر أجده يصف مغامراته ولهوه باستحضار منظر فقايق الماء، يقول:

سموت إليها بعدما نام أهلها

¹ - امرؤ القيس، ديوانه، ص 72 - 73.

² - نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1970م، ص 57.

³ - امرؤ القيس، ديوانه، ص 19.

سُمُو حَبَابِ المَاءِ حَالاً عَلَى حَالٍ¹

وعلى غرار "امرؤ القيس" وجدتُ "طرفة بن العبد"، وهو يعدّ من أشهر من وصف

الناقة في العصر الجاهلي يقول:

وَإِنِّي لِأَمْضِي عِنْدَ احْتِضَارِهِ

بِعَوْجَاءِ مِرْقَالِ تَرُوحٍ وَتَغْتَدِي

آمُونِ كَأَلْوَابِ الإِرَانِ نَصَاتِهَا

عَلَى لَا حُبَّ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بِرَجْدِ

جَمَالِيَةِ وَجَنَاءِ تَرْدِي كَأَنَّهَا

سَفْنَجَةٌ تَبْرِي لِأَزْعَرِ أُرِيدِ

تَرْبَعَتِ القَفْقَيْنِ فِي الشَّوْلِ تَرْتَعِي

حَدَائِقِ مَوْلِي الأَسْرَةِ أُغِيدِ²

لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهَا

تَمْرٌ بِسَلْمِي دَالِجٍ مُتَشَدِّدِ

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمِ رُبُّهَا

لُتْكَتَفَنَّ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ³

فمن خلال هذه الأبيات أرى بأنّ ناقة "طرفة بن العبد" التي يمضي عليها همومه ناقة متزنة آمون لا يخاف عثارها، فهي منبسطة الظهر والعظام كألواح التابوت، ثم إنّها تشبه الجمل في متانة الخلق، واكتناز اللحم، وهي تعدو كالنعامة يعني فائقة السرعة، وقد رعت هذه الناقة أيام الربيع بين نوق جفت عروقها، وقلّت ألبانها، ممّا يشجعها على الرعي والانسجام مع بقية النوق، ولهذه الناقة مرفقان أفتلان قويان باتنان عن جنبها فكأنّها تمرّ مع

¹ - امرؤ القيس، ديوانه، شرح المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004م، ص137.

² - طرفة بن العبد، ديوانه، شرح سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، 2004م، ص92-93.

³ - المصدر نفسه، ص95-96.

دلوين يحملها ناقل المياه، وهي بدورها لا تختلف في ضخامتها عن قنطرة الرومي الضخمة وكل هذا ما هو إلا سمة مثالية ومميزة أضفاها "طرفه بن العبد" على ناقلته التي لا مثيل لها. "أما في حديثي عن الرياح فقد وضعت العرب لكل ربح اسماً يختلف باختلاف مناطق هبوطها... فأطلقوا عليها اسم الصبّا، كما سموها القبول وقد أكثر الشعراء الجاهليون من ذكرها، ناهيك عن الجبال والكتبان والنجوم والشجر والنبات".¹

ويقول "عنتره بن شدّاد" يصف وطنه وشوقه إليه:

يا منزلاً أدمعي تجري عليه إذا ضنّ السحابُ على الأطلال بالمطر
أرضَ الشَّرِيَّةِ كم قضيتُ مبتهَجًا فيها مع الغَيْدِ والأترابِ من وطَرِ
أيامَ غصنُ شبّابي في نعومتِهِ ألهو بما فيه من زهرٍ ومن ثمَرِ
في كل يومٍ لنا من نشرها سحرًا ريحٌ شدّأها كُنشِرِ الزهرِ في السحرِ
وكلُّ غُصنٍ قومٌ راقٍ منظرُهُ ما حظُّ عاشِقها منه سوى النظرِ²

فهنا "عنتره" يذكر أيامه السعيدة في هذا الوطن الحبيب أيام كان فتى ينعم بخير هذا الوطن وجماله، وهو يسقي أرض وطنه بدموعه إذا ضنّ السحاب ولم يسق أرضه.

ويقول كذلك يصف حصانه أثناء وقوعه في المعركة، يقول:

فازور من وقع القنّا بلبانِه لو وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمّم
كان يدري ما المحاورَةُ اشتكى ولكان لو علم الكلام مُكَلِّمي³

ففرس "عنتره" من حيث سهيله فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له، فيقول "عنتره": فمال فرسي ممّا أصابت رماح الأعداء صدره ووقعها به وشكا إليّ بعبرته وتحمّمه أي نظر إليّ وحمّم لأرق له.

¹ - نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص 53.

² - عنتره بن شدّاد، ديوانه، نفقة خليل الخوري، مطبعة الآداب، ط4، 1893، ص 42.

³ - المصدر نفسه، ص 84.

فيقول: لو كان يعلم الخطاب لاشتكى ممّا يعانيه، ولكلمني لو كان يعلم الكلام، فلو قدر على الكلام لشكا إليّ ممّا أصابه من جراح.¹

وخلاصة القول بأنّ الطبيعة مثلت للإنسان الجاهلي مظهرًا آخرًا، يختلف عن كونها مصدرًا للإلهام والجمال، وتمثل هذا المظهر في كون الطبيعة قوة خارقة، عبدها بكافة مظاهرها، فعبد بذلك الجاهلي الأرض والقمر، والشمس والنجوم والحيوان، ممّا يعزز في نفس الشاعر من قيمة الطبيعة لتمثل مصدرًا يتسقى منه صوره وإبداعه، ولا بدّ لهذه العلاقة بين الشاعر الجاهلي والطبيعة أن تنعكس في إبداعه، وأن تظهر بعض ملامحها في شعره.

2- الطبيعة في العصر الإسلامي والأموي:

يتسلّل شعر الطبيعة عبر العصور العربية المتوالية فهو يسمو ويسطع في عصر صدر الإسلام فيقطر ولها وينطلق إلى العصر الأموي نغمات تلهف ورجع أسي يرسله من خلف قضبان السجون شعراء نحو هذا الصقع العربي، أو ذلك الصقع الغربي.²

وعند غير الجاهليين - في العصر الإسلامي و الأموي - فسار الحال على سُنن الأقدمين، فقد راح الشعراء يستلهمون صحراءهم مزوجين على شاكلتهم بين حبّ الطبيعة، وحبّ المرأة، فراح الشاعر يفتتح غالبًا مطولاته بوصف أطلال الديار، ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته في الصحراء، وما قطع منها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في

وصفها لما لها من جمال في نفسه، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارسًا¹ وهو في ذلك يحدثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه، ويخلف أثرًا في ذهنه من طير

¹ - أبي عبد الله الحسيني بن أحمد الرّوزبي، شرح المعلقات السبع، الدار العالمية للنشر، د.ط، 1993م ص142 - 143.

² - كاظم حطيّط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج1، ص133.

وحیوان في الأرض، ونجوم وكواكب في السماء، وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة فإن الصحراء لم تجف يبابيها في نفوسهم بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم على نحو ما أجده عند مبرزيهم من أمثال "الفرزدق" و"الأخطل" و"جرير"، ومن غير ما يصور ذلك أبيات "للفرزدق" يوازن فيها بين طبقة الصحراء ونهر دجيل وما يجري فيه من سفن، موازنةً يُعلي فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً²، يقول:

لَفْلُجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ
وَرَاِحِلَةٌ قَدْ عَوَّدُونِي رُكُوبَهَا وَمَا كُنْتُ رَكَابًا لَهَا حِينَ تَرَحَّلُ³

قال "الفرزدق" هذين البيتين يمدح "أحمد بن عبد الله القسري" بأنه يؤثر صحراء الفلج، وهو ما كان بين البصرة وحمى ضرية على نهر دجيل، وهو نهر يصب في دجلة ويقول أنهم ساقوه على الراحلة المائية أي السفينة ولا عهد له بها.⁴

كذلك نجده يمدح "هشام بن عبد الملك"، يقول:

وَلَيْلَةٌ لَيْلٍ مَرَّ جِحْنَ ظَلَامُهَا سِوَاءَ عَلَيْنَا طَلْقُهَا وَعُيُومُهَا
كَأَنَّ بِهَا الْأَيَّامَ وَاللَّيْلَ وَصَلَاً وَظُلْمَاءَ مُسَوِّدٌ عَلَيْهَا بِهِمُهَا⁵

"فالفرزدق" يقول بأنه ظل يعدوا الليل كله حتى تبلج عليه عمود الصبح الذي أضاء الظلمة وبددها ويقصد بالطلق: الصفاء، ويقول كذلك بأنه اجتاز الليلة الليلية سواءً أكانت صافية أم أنها غائمة ممطرة.⁶

¹ - علي نجيب عطوي، الأعلام من الأدباء والشعراء، ذو الرمة شاعر الحب والطبيعة، ص54.

² - المرجع نفسه، ص59.

³ - الفرزدق، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1980م، مجلد 02، ص79.

⁴ - إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1983م، ج2، ص197.

⁵ - الفرزدق، ديوانه، ص257.

⁶ - إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ص478.

وأجدُ "الفرزدق" يمدح "سليمان بن عبد الملك"، ويهجو "الحجاج بن يوسف" وهو بذلك يصف مكانًا ناعمًا في خضرة فسيحة ويقرنها بالمطايا وكيف أنه خاض الليالي يقول:

كَأَنَّ نَعَامَاتٍ يُنْتَفَنُ خَضْرَةً بَصَحْرَاءَ مِمْرَاحٍ، كَثِيرٌ مَجَالَهَا
يُبَادِرُنْ جُنْحَ اللَّيْلِ بِيضًا وَعُثْرَةً دُعْرُنَ بِهَا، وَالْعَبَسُ يُخَشَى كَلَالَهَا¹

كذلك تناول "جرير" وصف الطبيعة في الصحراء التي قطعها في رحلاته العديدة والإبل التي ركبها والحصان الذي امتطاه، ولقد عشق "جرير" كأغلب شعراء عصره الأرض التي عاش فوقتها، والوطن الذي تقلب على ترابه، وترى في أحضانه، كذلك أجدُ "سراقة بن مرداس البارقي" حيث أظهر ناشر ديوانه أنه من أعظم وصافي "الخليل" في العصر الأموي² وغيرهم.

وقد قيل بأن "الأخطل" قد تحدّث عن الطبيعة أيضًا، فصورها أبداع تصوير حيث يصف الغراب والذئب ونهر الفرات عند فيضانه³، يقول في حجر في بحر:

مَا يَضِيرُ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِرًا أَنْ رَمَى فِيهِ غَلَامٌ بِحَجْرٍ⁴

ويقول في وصف خيول التغلبيين:

يَخْرُجْنَ مِنْ ثَغْرِ الْكَلَابِ عَلَيْهِم حَبَبَ السَّبَاعِ تُبَادِرُ الْأَوْشَالَ
مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدِ أَسْرُهُ سَلِسَ الْقِيَادِ، تَخَالُهُ مُخْتَالَا
وَمُمَرَّةٍ أَثَرِ السَّلَاحِ بَنَحْرِهَا فَكَأَنَّ فَوْقَ لَبَانِهَا جَرِيَالَا
فُبَّ الْبَطُونِ قَدْ إِنطَوَيْنَ مِنَ السُّدَى وَطِرَادِهِنَّ، إِذَا لَقِينَ قِتَالَا⁵

¹ - الفرزدق، ديوانه، ص 73.

² - علي نجيب عطوي، الأعلام من الأديباء والشعراء، ذو الرمة شاعر الحب والطبيعة، ص 59.

³ - يُنظر، المرجع نفسه، ص 69 - 71.

⁴ - الأخطل، ديوانه، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1994م، ص 175.

⁵ - الأخطل، ديوانه، ص 247.

وعليه يمكن القول بأنّ من يُلقِي نظرةً على ديوان "ذو الرّمة" فإنّه سيجد أنّ وصف الطبيعة تحتل الجزء الأكبر من ديوانه، والملاحظ أنّه شديد الحبّ للصحراء.¹

فمن مناظر الطبيعة التي تسترعي اهتمامه منظر السراب المترقّق فوق الرمال ومنظر المياه الآجنة في أعماق الصحراء البعيدة، وفي كثيرٍ من قصائده يلقان هذان المنظران اللذان لا يملُّ الشاعر من الحديث عنهما بإلحاح شديد، وهو حديثٌ تبدوا فيه تجربة الشاعر، وخبرته بحياة الصحراء وطبيعتها.²

إذ يقول:

إلى لوائح من أطلالٍ أحويةٍ كأنّها خالٌ مَوْشِيَّةٌ قُشْبُ
 بجانب الزرق لم تُطْمِسْ مَعَالِمُهَا دَوَارِجُ المُورِ والأَمْطَارُ والحِقْبُ
 ديارٌ مِيَّةٌ إذْ مَيُّ تُسَاعِفُنَا ولا يري مثلَهَا عَجْمٌ ولا عَرَبُ
 بَرَاقَةُ الجِيدِ واللِّبَاتِ واضحةٌ بَيْنَ كأنّها ظَبِيَّةٌ أَفْضَى بها لَبَبُ
 النَّهَارِ وبَيْنَ اللَّيْلِ من عَقْدِ على جوانِبِهِ الأَسْبَاطُ والهِدْبُ³

ويقصد "ذو الرّمة" هنا بلوائح ما لاح وبدأ من الأطلال: الرسوم، والأحوية البيوت المجتمعة الجديدة في مكان يُسمى بالزُّرْق حيث ما تمحوه الرياح من التراب والأمطار. ونجده يصف ذكر النعام والنعامة صغيرة الرأس وفراخها في صورة رائعة جدًّا، يقول:

كأنّها دَلُوٌّ بئرٍ جَدَّ ماتحُهَا حتى إذا ما رآها خالَهَا الكَرَبُ
 ويُلَمُّهَا رُوحةٌ والريحُ مُعَصِفَةٌ والغَيْثُ مُرْتَجِزٌ واللَّيْلُ مُقْتَرِبُ⁴

وأجده في موضع آخر يصف الرياح، يقول:

فَلَمَّا كَسَا اللَّيْلُ الشَّخُوصَ تَحَلَّبَتْ على ظهره إحدى اللَّيالي المَواطِرِ

¹ - علي نجيب عطوي، الأعلام من الأدباء والشعراء، ذو الرّمة شاعر الحب والطبيعة، ص74.

² - المرجع نفسه، ص122.

³ - ذو الرّمة، ديوانه، شرح عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006م، ص12.

⁴ - ذو الرّمة، ديوانه، ص23.

وهاجت له من مَطَّلَعِ الشَّمْسِ حَرَجَفٌ¹ تَوَجَّهَ أَسْبَاطُ الْحَقُوفِ التِّيَاهِرِ¹

ويقصد هنا بكلمة حَرَجَفٌ: الريح الشديدة الباردة التي تَحْجُبُ أشعة الشمس لما لها من سحب عاتم.

وبالعودة إلى صدر الإسلام فقد كثر ذكر الطبيعة والحنين إلى الأوطان وفي مقدمة ذلك القول المأثور: "حُبُّ الأوطان من الإيمان".

وعليه فقد كان "الرسول صلى الله عليه وسلم" مُحِبًّا لوطنه كثير الحنين إليها، إذا دُكِرَتْ كانت عيناه تغرورقان بالدموع شوقًا وحنينًا، وكان يكره خروجه من مكة مضطرًا ويذكرها مُحِبًّا، يقول في خروجه من مكة مهاجرًا: (والله إنَّكَ لخير أرض الله إلى الله وأحبَّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ مِنْكَ ما خَرَجْتُ)... ففي رواية قدوم "أصيل الغفاري" من مكة، وكان "النبي صلى الله عليه وسلم" يسأله: (يا أصيل كيف عَهِدْتَ مكة؟ قال: والله عهدتها قد اخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها، وأغدق أذخرها وأسلت ثمامها وأمشَّ سَلَمَها، فقال النبي: حسبك يا أصيل، لا تُحزِنًا).²

وأجد "حسان بن ثابت رضي الله عنه" يرثي "الرسول صلى الله عليه وسلم" ويذكر وفاءه "الرسول الله صلى الله عليه وسلم"، إذ يقول:

لعينٌ ألا أبكي سيِّدَ الناسِ واسفحي بدمع فإن أنزفته فاسكبي الدها
وابك عظيم المشعرين وربِّها على الناس معروف له ما تكلمًا³
إلى أن يقول:

¹ - المصدر نفسه، ص141.

² - يُنظر، يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي - الحنين إلى الأوطان، جامعة إربد الأهلية، الأردن، ط1، 2008م، ص11-12.

³ - حسان بن ثابت، ديوانه مطبعة الدولة التونسية، د.ط، 1281، ص124.

فاتطلع الشمس المنيرة فوقهم أباء إذا على مثله معهم أعزّ وأكرمًا
يأتي وأكرم شيمة وأنوم عن جار إذا الليل أظلمًا¹

وهنا يمكن الإشارة إلى أنّ "حسان" هو شاعر "النبي صلى الله عليه وسلم" فكان لابدّ له وأن يرثيه كما سبق الذكر.

3- الطبيعة في العصر العباسي:

أمّا في العصر العباسي، الذي بلغت فيه الحضارة العربية أقصى درجات النضج والاكتمال، فقد أتيح للأدب الاتصال بالشعوب اتصالاً بثّ فيه الحياة، فظفر بذلك أدب الطبيعة فيه بمكانة ظاهرة.² ولعلّ أدباء العصر العباسي، ومعهم أدباء الأندلس قد بلغوا في ذلك شأواً بعيداً صنعةً وإبداعاً.³

وفي هذا العصر وبالتحديد أفق مع "ابن الرومي" الذي هرب كحال الرومانسيين في عصور مقبلة إلى الوحدة، وإلى الطبيعة، ويزيده ألم الغربة النفسية انطلاقاً وحدةً في

المشاعر، فيفتح قلبه لصرخات المقهورين والمعذبين، والأشراف الثائرين، والمستشهدين وهو بذلك شأنه شأن "جبران خليل جبران".

¹ - المصدر نفسه، ص 124.

² - خليفة محمد التليي، الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، د.ط، د.ت، ص 83.

³ - فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص 138.

فيقلق "ابن الرومي" في مجتمعه، ويشكو وسطه فيشارف اليأس، ولا يجد سوى الطبيعة ليلجأ إليها ، ويلوذ بها، وهو يصفها وينطلق مع روائعها، وتتباين لوحاته الفنية فيها، وهو يصحبها في مختلف فصولها وحالاتها ومشاهدها.¹

يقول "ابن الرومي" في قصيدته "الرياض الشاكرة" - وهي لوحة فنية في وصف الطبيعة رشيقة سلسلة متجانسة الألوان، متناسقة الوقع-:

ورِياضُ تخايلِ الأرضِ فيها	خُـيلاءَ الفتاةِ في الأبرادِ
ذاتِ وشي تناسجته سوارِ	لَبَقاتُ بحركه وَغـوَادِ
شكرتُ نعمةَ الوليِّ على الوَسِّ	مِـيَّ، ثم العِهَادُ بعد العِهَادِ
فهي تُنثني على السماءِ ثناء	طَيِّبِ النَشْرِ شائِعًا في البلادِ
من نسيم كأنَّ مسراه في الأر	واح مسرى الأرواح في الأجسادِ
حملت شكرها الرياح فأدَّت	ما تؤديه ألسن العوَادِ ²

فمن خلال هذه الأبيات يمكن القول بأنَّ الطبيعة الخضراء كانت أكثر رحابةً وأصدق حنانًا، وأغنى روعةً وجمالاً من حياة المدينة، وهذا ما ألفناه لدى "ابن الرومي" فتفسير هروب "ابن الرومي" من المدينة هو ذلك الجو المملوء بالعممة والهيمنة والظلم ولجوءه إلى الطبيعة ليلقى الرياض والسلوان، واللهو، ولكي يفتق أسراره من خلال تلك المناظر الطبيعية البهية ليزداد صفاءً وإنسانيةً، وتغنيًا بحسّ الطبيعة التي تظل تزهو وتقوى وتشعُّ وعليه يمكن أن نستنتج من هذه الأبيات السابقة: صحيح أنّ هذه الأبيات تمثل الرياض لكن بفعل ريشة "ابن الرومي"، وبسماتها المعبرة الصافية، فهي تتخيل مزهوةً كفردوس يدفق بالفتنة والبهاء، وتخلص من سكرة الزهو والإغواء لترسل شكرها للطبيعة البرّة المعطاء، وترق الصورة صافيةً ناضرةً، وأنيسة جذابة ومؤثرة فتتسامى هذه الرياض، رياض "ابن الرومي" الجميلة، وتبدي

¹ - كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج1، ص133.

² - ابن الرومي، ديوانه، تح حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2003، 3 م، ج2، ص683-684.

ثناءها العاطر على السماء الماطرة ويتجاوز بها الشاعر الرؤية الحسية إلى مشاهدتها الروحية أو الملائكية، وهو يصفها في

انطلاقها المتسامية فيزهو وصفه لها بألوانه البهيجة وهالته أو ظلالة الحالية العابقة".¹

العبقة".¹

ولعلّ معارضة "العقاد" لنونية "ابن الرومي" المستهلة بوصف الطبيعة أحسن دليل على

ما نسوق، فهو يقول:²

هذا الربيع تجلّى في مواكبه وهذا الدّهر أن بعدها أن
تفتحت عنه أكمّام السماء رضّى وزفه من نعيم الخلد رضوان
وشائع النور في البستان باسمه والأرض خالية، والماء جذلان

ها هو ذا "ابن الرومي" يقف مع الطبيعة، فهو يدقق فيه على سجيته، فينسج المشهد

الطبيعي الفني البهي، فيغني صفاء وإنسانيةً، ويتنوع فيزداد حياةً، وعلى غرار "ابن الرومي"

نجد كذلك "البحثري" و"المتنبي" وغيرهما ممّن برعوا في وصف الطبيعة والتغني بها.

يقول "البحثري" يصف الغيث:

ذات ارتجازٍ بحنين الرّعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجدٍ لها نسيمٌ كنسيم الورد
ورثةً مثل زئير الأسد ولمع برقٍ كسيف الهند
جاءت بها ريح الصّبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغدٍ من وشى أنوار الرّبي في برد
كأنّما غدرانها في الوهد يلعبن من حبابها بالنّرد³

¹ - كاظم حطييط، أعلام ورواد الأدب العربي الحديث، ج1، ص136.

² - فواد القرقرزي، أهم المظاهر الرومنطقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الخارجية فيها، ص138.

³ - البحتري، ديوانه، تصحيح عبد الرحمن أفندي البرقوقي، مطبعة هندية، مصر، ط1، 1921م، ج1، ص200.

"فالبحتري" في هذه الأبيات أجده يصف الغيث وصفاً رائعاً، فهي حنونة عندما تهطل، فتنزل دموعها المسفوحة وكأنتها دموع الإنسان، وهي ذات رائحة جميلة كنسيم الورد، وهي بدورها في غاية الحدة، وإلى غير ذلك من الأوصاف.

وها أنا أجد "البحتري" وهو يرسم لنا صورة الربيع، يقول:

أتاك الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً من الحسنِ حتى كاد أن يتكلماً

فهو يمهّد هذه اليقظة الحلوة التي تنتبّه لها الطبيعة من غفوة كادت أن تكون مواتاً. ويقول كذلك:

فَمَنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ لِبَاسَهُ عليه كما نشرتَ وشياً مُنَمِّمًا¹

ويعني هذا أن أول شيء يفكر فيه المستيقظ عند انتباهه أن يتأهب للقاء الناس باللباس الذي يروق لهم. و"البحتري" لا يقف عند هذا الحدّ بعرض اللوحة أمامنا بألوانها الطبيعية التي نقلها عن الطبيعة ذاتها، لكنّه يدعنا نلمح في أرضية اللوحة ظلالاً أخرى تضيء على الصورة حيوية حين يمازج بني أحاسيسه الباطنة القاتمة وبين مظاهرها الطبيعية المتألقة والباسمة، إذ يقول:

إبكيَا هذه المغاني التي أخ لِقَهَا بُعْدُ عَهْدِهَا بِالْغَوَانِي

أَسْعَدَا الْغَيْثَ إِذْ بَكَهَا وَإِنْ كَا نَ خَلِيًّا مِنْ كُلِّ مَا تَجْدَانِ

جَادَ فِيهَا بِنَفْسِهِ فَاسْتَجَدَّتْ حُلَا مِنْهُ جَمَّةُ الْأَلْوَانِ

فهي تهتز بين إفر نده الأخ ضرٍ حُسْنًا، ووشيه الأرجواني²

أرى في هذه الأبيات تراحم الألوان القاتمة، فيها الألوان الزاهية، فتظل من خلال هذه البسمات ومضات دمع، وتسمع من بين هذا الموكب المدح أنات خافتة، حيث تعبر سماء هذا الألق الضاحك سحابات حزن وأسى.

4- الطبيعة في العصر الحديث:

¹ - البحتري، ديوانه، شرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت، المجلد 01، ص15.

² - المصدر نفسه، ص16.

وعندما ألفت البيئة الطبيعية رحلها في العصر الحديث تلقفها شعراء مدرسة "أبولو" عامةً، والشعراء المهجريون بصفة خاصة، حيث "هام شعراء "أبولو" في حب الطبيعة حتى لتصبح عندهم الأم الرّوم والملاذ الذي يجدون السكينة في جواره، بعيدين عن زيف المدينة وصخبها... فهم يندمجون في روحها، ويعانقونها عناق الأحباب، ويصفون أحاسيسهم ومشاعرهم نحوها أكثر، ممّا يصفون مشاهدتها الجميلة، وهذا بطبيعة الحال اتجاه رومنسي واضح، كون الرومانسية تدعو إلى أن يستلهم الشاعر فنه من الطبيعة والعاطفة الإنسانية".¹

أمّا الشعراء المهجريون فقد كانت الطبيعة عندهم بمثابة المرايا المتعددة للشيء الواحد بينها من الوشائج وصلات القرى ما بين الأسرة الواحدة، فتقدّست الشوكة كما تقدّست الزهرة، وبُورك الخريف والذبول، كما بُورك الربيع والأزهار وعشقت هدأة الليل كما عشقت جلوة الضحى، ونعمت روح الشاعر بالنسمة الواحدة، كما صفقت للعاطفة الراجعة.²

وفضلاً عن إحساسهم بوحدة الطبيعة، أحسوا بوحدة الموجودات، فالإنسان أخ للأشجار والأنهار أيضاً وابن من أبناء الطبيعة التي تحنو عليه في أمومة رّوم، ويحسّ حين يستسلم إلى ذراعيها المرّحبتين، وصدرة الرّحيب أنّه يولد من جديد وتعود إليه طفولته الروحية وبراءته النفسية.³

ولنا في الناقد والشاعر العظيم "ميخائيل نعيمة" ولاسيما في كتابه (زاد المعاد) دليل على أنّه يخصص للطبيعة مقالة عنوانها (دستور الطبيعة)، كذلك في مذكرات "الأرقش" نجده يحارب فكرة سيادة الإنسان على الطبيعة لأنّ الطبيعة في معتقده مرآة للإنسان يقول: "وما الطبيعة في الواقع سوى مرآة الإنسان فألغازها وأسرارها، وخيرها وشرّها وجمالها، ليست سوى انعكاسات ألغازه وأسراره، وخيره وشره وجماله وقباحته كما يكون الإنسان تكون الطبيعة... فمفتاح الطبيعة ليس في الطبيعة عينها، بل في الإنسان نفسه وذلك المفتاح هو المعرفة"،

¹ - محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م، ص 82.

² - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 419.

³ - المرجع نفسه، ص 419.

فمن شاء أن يعرف الطبيعة فليعرف نفسه أولاً، ومن شاء أن يكون سيد الطبيعة فليكن سيّد نفسه.¹

وها هو "ميخائيل نعيمة" يقول في قصيدته (الآن):

غداً أعيد بقايا الطين للطين

وأطلت الروح من سجن التخامين

وأترك الموت للموتى ومن وُلِدُوا

والخيرُ والشرُّ للدنيا والدين

فالشاعر هنا يعزف لحن الحيرة والشك، والتساؤل لإدراك حقيقة الأشياء، وفي محاولة الإدراك للكون ومعانيه، وانتظار الموت لعله يبيّن السرّ² الخفي وعليه يمكن القول بأنّ الطبيعة تمثل في شعر هؤلاء المهجريين إحساساً ممتزجاً بالنفس متصلاً بالوجدان فتصبح جسراً يصل بين ما في أغوار نفوسهم من حسّ إنساني ونزعة متألمة وهروب نفسي وتعويض لا شعوري عما يفتقد في دنيا الناس وأحياناً تتخذ الطبيعة في شعرهم رمزاً لوجهات نظرهم الفلسفية، وأجد "ميخائيل نعيمة" في هذا الصدد يتخذ النهر المتجمد صورةً لنفسه يفيض منها تدفق الحياة، ويرى أنّ كل شيء يضيع من ذاته الضائعة، فيقول في قصيدة (النهر المتجمد):³

قد كان لي يا نهرّ قلب ضاحك مثل المروج

حرّ كقلبك فيه أهواء وآمالٌ تموج

قد كان يضحى ما يملُّ ولا يشكو المَلل

واليوم قد جمدّت كوجهك فيه أمواج الأمل

فتساوت الأيام فيه صباحها ومساءها

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص420.

² - مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، الإسكندرية، د.ط، 1998 م، ص62.

³ - مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر ص62-63.

وتوازنت فيه الحياة نعيمها وشقاءها

ففي هذه القصيدة نجد رمز لجفاف النفس، وجمود الإلهام¹، حيث يقول:

يا نهر هل نضبت مياهُكَ فانقطعتَ عن الخير
 أم قد هَرمتَ، وخار عزمك فانثنيتَ عن المسير
 بالأمس كنت مُرَنماً بين الحقائق والزهور
 تتلؤ على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
 واليوم قد هبطت عليك سكينه اللحد العميق

فالإحساس بوحدة الوجود يشيع عند الأدباء والشعراء المهجريين حيث تمثلوه في كل ما رأوه، فالإنسان يندمج في الطبيعة، ويفكر من خلالها، وتكشف مشاهدتها عن أفراحه وأقراحه، ثم هي تحيا من خلاله، وتشارك الإنسان، وتكلمه وتُلمي عليه، وتحضنه، وتدب فيه حتى ليُحار الشاعر من وهن الحدود الرهيفة التي بينه وبين نفسه، وبين مظاهر الطبيعة، و"نعيمه" في قصيدته (من أنت يا نفسي) يصور لنا هذا الموقف من الطبيعة حيث يلتحم مع نفسه بمظاهرها التحاماً كاملاً، فيخاطب نفسه حين يراها عاشقةً للموج مترصدةً البرق، مصغيةً للرعْد، هامسةً للريح ذاتبةً في ضياء الفجر، عارقةً في سحر الألحان²، يقول:

هل من الأمواج جئت؟

هل من البرق انفصلت؟

أم مع الرعد انحدرت؟

هل من الريح ولدت؟

هل من الفجر انبثقت؟

هل من الشمس هبطت؟

¹ - المرجع نفسه، ص 63.

² - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 415.

هل من الألمان أنت؟

ويقول "نعيمه" يصف الغاب وأشجاره وأطيّاره¹:

أشجار الغاب تُحيينا وطيورُ الغاب تُناجينا
وزهور الغاب تصافحنا ونصافحها وتُهنينا

كذلك يتخذ "نعيمه" من أوراق الشجر المتساقطة في فصل الخريف ما يُجسّم شعوره

النفسي بضياح كل شيء، فيقول مخاطبًا أوراق الخريف²:

تتأثري تتأثري يا بهجة النظر
يا مَرَقَصَ الشمس ويا أرجوحة القمر
يا أرغن الليل ويا فِيتارة السحر
يا رمز فكرٍ حائر ورسوم روح ثائر
يا ذكر مجدٍ غابر قد عافك الشجر

تتأثري تتأثري

فهذه الأبيات تدل على أنّ تساقط أوراق الخريف هي صورة لتساقط الإنسان في نهاية الطريق، وكيف تلفظه الحياة، كما تلفظ الأشجار أوراقها في الخريف. و"نعيمه" في البيت الثالث يقرنها بأرغن الليل وفيتارة السحر ويجعلها رمزًا للفكر الحائر والروح الثائرة، ومجد غابر، ولقد عافها الشجر وتخلّى عنها، فما مضى لن يعود³. فوق هذه القصيدة (الخريف) داخلي مترفع مملوء بالحزن والوجد والكآبة.

وعلى غرار "ميخائيل نعيمه" أجد "إيليا أبو ماضي" ذلك الشاعر الرومانسي الحالم الذي أحبّ الطبيعة فغناها أجمل شعره، ورأى في هدوئها، وروعها ما نُقِرّ به نفسه فأعجبتة في بساطتها وجمالها، وبعدها عن أدران الحياة وأكدارها، فكان يُنشد الراحة بين أفيائها والهدوء بين مناظرها، فألهمته صورًا رائعة، وأخيلة مُجتحة ومعاني خلاقة تسموا بالإنسان إلى مراتب

1 - محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص 338.

2- مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، ص 63.

3- إيليا الحاوي، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م، ج5، ص34.

السمو والجلال، فهو يتناولها من وجوه شتى فيصف روائعها ويصف مناجاة الحياة فيها، ويستخلص منها العبر والعظات¹. "فايليا" شأنه شأن "تعيمة" فقد تولى هو الآخر الطبيعة، وكانت حيناً طبيعةً وجدانيةً مفعمةً بالحنين كما في قصيدة "وطن النجوم"² حين يمرُّ أمام عينيه شريط الذكريات، فيتذكر ذلك الفتى الأرعن الجذلان الذي يتسلق الأشجار، ويبري الأغصان تارةً سيوفاً، وأخرى رماحاً، ويقوم بحركاته الشيطانية³، يقول:

وطنِ النجوم... أنا هنا حذِّقْ... أتذكر من أنا؟
المحتّ في الماضي البعيد فتىً غريباً أرعنا⁴

ويتحدّ شاعرنا مع طبيعة بلاده كذلك اتحاداً كلياً في مشهد واقعي ناطق، يقول:

أنا من مياهك قطرة فاضتْ جداولَ من سناً
أنا من ترابك ذرة ماجتْ مواكب من منى
أنا من طيورك بابلُ غنّى بمجدك فاغتني
حمل الطلاقة والبشاشة من رُوعك للذنى
كم عانقت روعي رباك وصفقت في المنحى⁵

وكانت أحياناً أخرى- الطبيعة لديه- أداة للثناء كبكائه على مصير الزهرة في الآنية... حيث كان يتخذ من الطبيعة وزهرها مادةً لهذه التجربة، ولربّما طرأت عليه حالة من الوجد والذهول كما في قصيدة (المساء)، إلا أنّ آفة هذا الشاعر أنّه جعل الطبيعة مادةً للافتراض

¹ - خليل برهومي، الأعلام من الأدباء والشعراء، إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والجمال، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1993م، ص64.

² - إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر العربي والغربي، دار الثقافة، بيروت، د.ط، د.ت، ص167.

³ - فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، مطبعة اليازوري، عمان، ط1، 2000م، ص88.

⁴ - إيليا أبو ماضي، ديوان تير وتراب، دار العلم للملايين، ط1، 1960م، ص453.

⁵ - المصدر نفسه، ص454.

والتساؤل، والبيئة لتثبيت دعائم مذهبه في الوجود.¹ ونجده في (الطلاسم) وهو يناجي البحر يوظف الطبيعة في توضيح إيمانه بهذا المعتقد الذي يلتقي فيه مع "جبران"² و"تعيمة"، يقول: يقول:

ترسل السحب فتسقي أرضنا والشجرا

قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا

قد شربناك وقلنا قد شربنا المطرا³

وعلى أية حال فإذا رجعنا إلى قصائد الغاب كلها- عند شعراء المهجر الأمريكي- سأجدها جميعاً ليست إلا رمز حُبِّ دافق للوطن المفقود الذي خفي عن أنظارهم، ولا يزال يُدوي في قلوبهم صياح النشوة به وكأنه سهام تنفذ إليهم من حفاف السماء في غمرة هذه النشوة، يُشدون تلك الألحان العذبة، يتغنون فيها بالغاب⁴، ولربما كانت قصيدة (الغابة المفقودة) "إيليا أبي ماضي" أوضح دليل على ما أقول، والتي يقول فيها:

يا لهفة النفس على غابة كنتُ وهنداً نلتقي فيها⁵

إلى أن يقول:

تُبَاغَتْ الأزهار عند الضحى متكئات في نواحيها

ألوي على الزئبق نسريتها والتف عاريها بكاسيها

واختلجت في الشمس ألوانها كأنها تذكر ماضيها

تآلفت فالماء من حولها يرقص فالطير تُغنيها

إلى أن يقول:

¹ - إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر العربي والغربي، ص 167.

² - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 416.

³ - إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، دار العلم للملايين، د.ط، 1986م، ص 143.

⁴ - شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط6، د.ت، ص 267.

⁵ - إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، دار العلم للملايين، د.ط، 1987م، ص 164.

وفوقنا الأغصان معقودة ذوائب طال تدليها
إذا هزناها على غرة ألفت من الذعر لآليها¹

ويمضي "إيليا" في وصف هذه الغابة المفقودة وصفاً لا يشك من يقرؤه أنه إنّما يصف لبنان بشحاريره وجباله، وفواكهه، وأوديته، وأضوائه، وأكاليل زهوره، ومازال حتى يأس لما أصاب غابته، في قوله:

الله في الغابة أيامنا ما عابها إلاّ تلاشيها²

فقد فصل زمان الهوى، وامتدت يد الإنسان فاستأصلت شجر الغابة، وطردت الطير من أعشاشها وأقامت الدور والقصور، وهذا كلّهُ إنّما هو رمز المدينة الأمريكية الجديدة ولبنان الطريدة، جنة الأحلام التي نزع منها الشاعر قبل الأوان.³

ويخاطب كذلك زهرة الوادي في قصيدته بعنوان (السجينة) وقد قطفها أحدهم ووضعها في إناء ليُزين بها صدر بيته، وما حبسُ هذه الزهرة إلاّ إحساس "إيليا" وكأنّه محبوس خلف قضبان المهجر الأمريكي، يقول:

أيا زهرة الوادي الكئيبة إنّي حزين لما صرت إليه كئيب
إلى أن يقول:

سيطرحك الإنسان خارج داره إذا لم يكن فيك العشية طيبُ
فتمسين للأقذار فيك ملاعب وفي صفحتيك للنعال ضروبُ
ايسارك يا أخت الرياحين مفعج وموتك، يا بنت الربيع رهيبُ⁴

¹ - المصدر نفسه، ص 369.

² - المصدر نفسه، ص 370.

³ - شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 268.

⁴ - إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، ص 19 - 20.

إلى آخر ما أُخْتِمَ به حديثي عن شعر الطبيعة عند "إيليا أبي ماضي"، والذي يُعبرُ جُلّه إن لم نقل كلّه عن غربته الذاتية عن وطنه وحنينه إليه هو وصفه لفراشة تُحتضر في فصل الخريف بعدما كانت تزدهي بألوانها أيام الصيف والربيع، فيقول في قصيدة بعنوان (الفراشة المحتضرة):¹

يا روضة في سماء الأرض طائرة وطائرًا كالأقاحي ذا شذى ذاك
مضى على الصيف عهد كنت لاهية على بساط من الأحلام ضحك
تُمسين عند مجاري الماء نائمة وللأزهار والأعشاب مغذاك
فكلما سمعت أذنك ساقية حنّنتِ للسفح من شوق مطاياك
وكلّما نورت في السفح زنبقة صفقت من طربٍ واهتز عطفاك
فما رشفت سوى عطر ولا انفتحت إلّا على الحسن المحبوب عيناك
وكم لثمت شفاه الورد هائمة وكم مسحت دموع النرجس الباكي²

و"إيليا" يعترف بقدره الله على إحيائها، وبعثها حياةً من جديد تتطلق بفرح مع الربيع كما كانت من قبل فتفرح بها الطبيعة، يقول:

ما أقدر الله على أن يُحييك ثانية مع الربيع كما في قبل سواك
فيرجع الحقل يزهو في غلائله وترجعين فأغشاه وألقاك³

وزبدة القول أنّ هذا الشاعر الفدّ، مرهف الحسّ هو شاعر الطبيعة بحق أطلت روحه علينا من بين "الخمائل"، ينطق بكل ما هو إنساني، ومن بين "الجداول" تراودنا إنسانيته المتعطشة لينابيع الوطن، إنّها روح عبّرت برقة وعذوبة عظيمة عن مدى اشتياقها وحنينها إلى مرابع صباحها، وعن أمل حارقٍ يكاد يكون يائسًا في العودة إلى الوطن الحبيب.

¹ - خليل برهومي، الأعلام من الأدباء والشعراء، إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والجمال، ص 66.

² - إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص 265-266.

³ - المصدر نفسه، ص 269.

وهنا يجدر بي الإشارة إلى الطبيعة عند الرومانسيين حيث واصل الأدباء الرومنطيقيون العرب السير على هذا النهج كذلك، فقد حفلت النصوص الأدبية التي خلفوها بوصف جمال الطبيعة في شتى مظاهره¹، إذ تُمثل الطبيعة صخرة النجاة التي يجلس عليها الأديب يلتمس الراحة ممّا ركب فيه من إشكال²، مثلما فعل "الشابي" إثر تجربته الفاشلة مع شعبه، يقول:

إنّني ذاهبٌ إلى الغاب، يا شعبي لأقضي الحياة، وحدي، بيأس
 إنّني ذاهبٌ إلى الغاب، عليّ في صميم الغابات أدفنُ بُوسي
 ثم أنسأكَ ما استطعتُ، فما أنت بأهلٍ لخمرتي ولكأسي
 سوف أتلوّ على الطيور أناشيدي وأفضي لها بأشواق نفسي³

فالغاب عند "الشابي" هو رمز الوحدة، حيث يتلو الشاعر ناشده وحوالجه للطيور وما في الغابة كلّها.

إنّ الطبيعة التي يصورها "الشابي" ليست متعددة المشاهد، ولا متنوعة المناظر... ولكننا حين نقرأ شعره نحسّ أنّ الشاعر يعبد الطبيعة عبادةً عميقةً تصل به إلى درجة الفناء في جمالها الأخاذ، وندرك أنّ شعوره بها ليس شعورًا بسيطًا، ولكنّه كان شعورًا عميقًا لأنّه لا يتذوقها في سذاجة المتلذذ المتنعم الذي لا يشغله منها إلاّ ما تُهيئه له من راحة وظلٍ وفير⁴.

وفير⁴.

ويتصل بالطبيعة انسجام الرومانسيين العرب مع الليل الذي يحجّب عن أعينهم أدران المجتمع، ويفتح أمامهم طريقًا للتحرّر من عبودية المادّة، وينقلهم إلى عالم ملؤه الصفاء فالليل عند "الشابي" إنسان جميل يرتاد المجهل ويوحى للشعراء بدُنيا عجيبة فيخاطب شقيقة روحه، قائلاً:⁵

¹ - فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص 138.

² - المرجع نفسه، ص 143.

³ - أبو القاسم الشابي، ديوانه ورسائله، شرح مجيد كواد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1994م، ص 117-118.

⁴ - خليفة محمد التليي، الشابي وجبران، ص 75.

⁵ - فايز الترحيني، الدراما ومذاهب الأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1988م ص 187.

"آه ما أجم الظلام! وأقوى وحياً في فؤادي المفتون!"
 "أنظري الليل فهو حلة الأحلام يمشي على الذري والحزون"
 "واسمعي الغاب، فهو ثيتارة الكون ن تغنى لحبنا الميئون"
 إن سحر الضباب، والليل، والغا ب بعيد المدى، قوي الفنون¹

و"الشابي" استقى كل هذه الوحدة والوجد من "جبران خليل جبران"، فهو يقر بنفسه بأنه تلميذ مخلص "جبران خليل جبران" الشاعر الفذ.

لقد كانت الطبيعة ماثلة في تجارب الرومانسيين في الوطن، ولقد أحس "أبو شبكة" هو الآخر بالطبيعة الريفية، وغمرها بأجمل الغناء في ديوان الألمان ولم يدع مظهرًا من مظاهر الطبيعة الريفية إلا وجعل أوتار نفسه تنئن له، وتترنم به² - وهو يعد من أعظم الشعراء الرومانسيين على الإطلاق - فالطبيعة في شعره لم تكن الطبيعة السحوقة المتزدية حيث وطأة الانفعال النازي والمهووس، بل كانت طبيعة شبه صوفية من الحنين إلى عالم الطفولة، والأعياد والمواسم والخير في الكروم، وبيادر الحصاد، والفلاح البريء والحصاد الغادي، إنها نوع من الطبيعة الصوفية الوثنية، وكأنما يحن الشاعر من خلالها إلى ما كان يحن إليه سائر الرومانسيين، تحن إلى العودة لفرديوس الإنسان المفقود والموعود تحت عجلة المدينة، ومكرها وتعقيدها.³

وأسارع فأقول لقد تعود الرومانتيكيون على إسقاط مشاعرهم على الطبيعة وإلباسها ثوبًا بشريًا حيًا لأن هؤلاء قد اكتفوا من الطبيعة بأن تقوم بدور الشريك الذي يقاسمهم الكآبة والبهجة، ولم تدوب في نظرهم تلك الحواجز التي تفصل بين عالمي الذات والموضوع بغية خلق امتزاج كلي بين الشاعر والوجود⁴ فالرومانتيكيون كانوا مولعون بترك المدن إلى الطبيعة،

¹ - أبو القاسم الشابي، ديوانه ورسائله، ص 182-183.

² - إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر العربي والغربي، ص 169.

³ - المرجع نفسه، ص 170.

⁴ - محمد فتوح محمد، الحداثة الشعرية (الأصول والتجليات)، دار غريب، القاهرة، د.ط، 2007م، ص 273.

وكانت تروقهم الوحدة بين أحضانها، ليخلوا إلى ذات أنفسهم ورائد الرومانتيكيين جميعاً في هذا الشعور "جون جاك روسو" عاشق الطبيعة وداعيتها الأول، يقول: "كنتُ أضرب على غير هدى في الغابات والجمال... لا أجرؤ على التفكير في شتّى خوف أن تتقد جذوة آلامي..."، و يقول كذلك: "... وكان قلبي ينبض يكاد يختنق في حدود الموجودات... وأعتقد أنّ لو استطعت الكشف عن أسرار الطبيعة لكنت في موقف أقلّ مجلبةً للسرور من هذه النشوة" وهذه النشوة بين أحضان الطبيعة هي طابع الرومانتيكيين جميعاً، وذلك لأنّ مبادئهم حبّ الخلوة، واعتزال الناس.¹

وهكذا أكون قد استكملتُ حديثي عن الطبيعة على مرّ العصور الأدبية بتقديم نماذج لهذا المدخل التمهيدي، وإنّ استرسلتُ وأطلتُ الحديث فيه على بعض الشعراء الذين برعوا في استخدام شتّى مظاهر الطبيعة والذين يمكن وسمهم بأسياذ الطبيعة.

¹ - محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، نهضة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 152 - 153.

الحمد لله خالق الإنسان، ومعلمه البيان، ومنزّل القرآن لأفصح بيان، والصلاة والسلام على نبيّه المبعوث إلى العالمين بالحجة والبيان محمد صلّى الله عليه وسلم على مرّ الدهر والأزمان، وعلى آله وأصحابه التابعين له بالبيان، وبعد:

لقد استقرّ في وجدان الأمة العربية أنّ من السحرّ لبيان، وأنّ من الشعر لحكمة، وقد كان نبيّ الإسلام صلّى الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر، ويثني على جيّده ويحث بالردّ على المشركين بسلاح الكلام الذي يستعملونه كذلك، ولا تزال هذه الدعوة موصولةً بضمير شعرائنا، وستبقى إلى الأبد.

إنّ نظرةً متأنيةً في الشعر العربي تجلي حقيقةً لا يختلف عليها اثنان، سواءً أكان في الشعر العربي عموماً أم في الشعر المهجري على وجه الخصوص، ومنه شعر الطبيعة- تلك الطبيعة التي كان لها دورها الكبير في تكوين شخصية الشاعر من جهة وفي توليد تلك الألفاظ الغابوية من جهة أخرى، كما أنّها ترمي بظلالها على صفحات القاموس اللغوي للشاعر، لترسم الكلمات بأطايب المعاني، وروائع الدلالات، هجيرة من سحر المكان، وتقوم على شواطئ الجمال، لتحملها أجنحة الزمان إلى جنان الأحلام.

لقد أحبّ الله لبنان طبيعةً خلّابةً افتتنّ بها الشعراء فتهافثوا على وصفها، وأكثروا من التغنّي بمناظرها الجميلة، كما عبّروا عن عشقهم الشديد لها، وعن كلفهم بها في لوحات شعرية غاية في الروعة والإبداع.

وقد تفننوا في ذلك أيّما تفنّن حتى غدت الطبيعة أهم ما في حياتهم.

لذا فقد عكس شعر الطبيعة في المهجر قوة اللحمة بين المهجريين، وبيئتهم وتعلقهم بمظاهر الجمال فيها فيستفيض في وصف محاسنها، ليعبّر عن التصاقه الشديد بها، فهي العشق الأول والأخير، وهي الأولى قبل بلاد الدنيا كلّها، وينبع هذا الوله والعشق من الإحساس العميق بالعروبة والانتماء، فكان انعكاساً للشعور الوطني في نفوس المهجريين وتعبيراً عن نزعة إنسانية قوية تأصلت في نفوس الشعراء، وظهرت في أشعارهم بشكل واضح.

وعليه فقد ظهرت الطبيعة في كل موضوع من موضوعات الشعر المهجري، فكانت متكناً للموضوعات الأخرى، فإذا تغزل الشاعر جعل الطبيعة إطاراً لغزله، وإذا وصف اتكأ على الطبيعة، وإذا أحنَّ إلى بلاده تذكر طبيعتها الجميلة، وإذا مدح أو رثى أخذت صور الطبيعة تنبت في أبياته، لذلك رسم الشعراء لوحات كثيرة على طبيعة لبنان وشوارعها، وتغنَّوا بها في قصائدهم، ومن فتنتهم بالطبيعة أفردوا الحديث عنها في قصائد مستقلة ليكون الوصف طبيعياً خالصاً، فتهياً لهم بذلك على أن يقفوا على كل جزئية من جزئيات الطبيعة فوصفوا الرياض، والأزهار، والنبات، والأشجار، الليل، البحر والأنهار والجداول، والحيوانات صغيرة وكبيرها، أليفها وجارحها، طائرها، وزاحفها، فلم يتركوا منظرًا، ولا جمادًا من مناظر طبيعتهم إلا وصفوه وتغنَّوا به في أشعارهم.

ومن أولئك الشعراء، لا بل وعلى رأسهم شاعرنا المجيد، والموسيقي البارع، والفنان المبدع فتى لبنان (بشري) وعلامها، وعميد الرابطة القلمية وشاعرها "جبران خليل جبران" الذي أدكت الطبيعة صباية عشقه وفجرت في قلبه ينابيع الرقة والجمال، فأغدق عليها من رهافة الحس، وأناقة اللفظ، وروعة المعنى ليرسم أجمل اللوحات لونًا، وأدقها تفصيلاً، وأسلسها عبارةً.

ولقد كان السبب المباشر في اختياري لهذا الموضوع هو كثرة الدراسات التي دارت حول شعر المهجر وخاصةً "جبران خليل جبران"، وموضوعات شعره أو اكتفت بإلقاء الضوء على حياته وشعره بصفة عامة لذلك أردت التأكد من شيوع ألفاظ البيئة الطبيعية عنده بشكلٍ فعلي، ومدى حضورها في شعره وحياته خاصةً، وبالتالي الكشف عن ألفاظ الطبيعة في شعره والتي لعبت دورًا مهمًا في الشعر العربي، وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى الكشف عن نفسية "جبران" الإنسانية التي رفضت الظلم والعبودية، والمعاناة.

وقد ارتأيت أن أتناول في هذه الرسالة - البيئة الطبيعية في شعره - مسلطةً كلَّ الضوء على نموذجين من أبرز أعماله الشعرية "دراسة وصفية تحليلية" ومحاولة الإجابة على الإشكالية الآتية:

ما دلالة المصطلحين البيئة و الطبيعية؟ باعتبار البيئة شكلت محور ثقل في شعر "جبران"؟ وما مدى تأثير هذه الشخصية في هكذا موضوع؟ وما هي الإنجازات التي حققها؟ وهل استخدم البيئة الطبيعية كمعادل موضوعي لنقل تجربته أم لا؟

وقد تابعت في دراسة هذه الإشكالية على منهاج وصفي تحليلي، وعلى هذا جاءت الدراسة في مقدمة ومدخل تمهيدي وفصلين وخاتمة.

ففي المدخل التمهيدي عرضت بإيجاز المسار التاريخي للبيئة الطبيعية على مرّ العصور الأدبية من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث مُوردةً أبياتاً لشعراء عدّة من مختلف العصور.

أمّا الفصل الأول فتناولت "جبران خليل جبران" الإنسان والمبدع، وركزت على حياة "جبران خليل جبران"، وبيّنت أهم موضوعاته، ووقفت على مختلف إنتاجه الأدبي، وهو بدوره تراث أدبي حافل سواءً في الشعر أم في النثر.

وفي الفصل الثاني والأخير تطرقت فيه إلى البيئة الطبيعية في شعر "جبران خليل جبران" دراسةً وصفية تحليلية، والتي أردت أن أجسدها في شعره من خلال نموذجين لأعماله الشعرية وهما مطولته (المواكب) ومجموعته (البدائع والطرائف) بصورة أكثر تفصيلاً وأوسع تطبيقاً.

ودراستي هذه كغيرها من الدراسات التي لم تخل من الصعوبات التي عادةً ما تعيق الباحث، ولكن لا توقف مساره، ومن بين الصعوبات التي واجهتني صعوبة الحصول على المراجع، وصعوبة التوفيق بينها في استنباط المعلومات نظراً لتشابه معظمها، وصعوبة اقتناء واختيار الأبيات الشعرية نماذج تطبيقية مبرهنةً على موضوعي - البيئة الطبيعية في شعر جبران خليل جبران -

ومن أهم المراجع التي اعتمدها في هذه الرسالة، والتي أمدتني بما أحتاج إليه من المعارف النظرية، كتاب "أدب المهجر" لعيسى الناعوري"، وكتاب "أدب المهجر" لصابر عبد الدايم"، واستفدت من المراجع التي تحدثت عن حياة الشاعر وأدبه مثل "المجموعة

الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران" بإشراف "أنطوان القوّال" و "حنّا الفاخوري" في كتابه "الجامع في تاريخ الأدب العربي" وغيرها من المراجع التي اعتمدها في هذه الرسالة. وذيلت الدراسة بخاتمة خصصتها للنتائج التي خرجت بها من خلال هذه الدراسة. وأخيراً أرجو أن تكون هذه الدراسة حلقةً في طريق البحث الموضوعي في تراثنا الأدبي، فإنّ وفقتُ فما ذلك إلاّ من الله، وإنّ أخفقتُ فما هو إلاّ من نفسي. و لا يفوتني أن أتوجه بالثناء الجزيل، والشكر العميق إلى أستاذي الجليل "تيس ناصر محمد الحسني" الذي شرفني بالإشراف على هذه الدراسة وأولاني كل عون ومساعدة، لذلك أجدني عاجزاً عن الوفاء بحقه. ولا يفوتني كذلك أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى أساتذتي بقسم اللّغة العربية في كلية الآداب- جامعة المسيلة- وإلى كل من مدّ لي العون والنصيحة، ولا أنسى توجيه الثناء والشكر لأعضاء مناقشة هذه الرسالة وتجشمهم عناء قراءتها، والذين سأفيد من ملاحظاتهم في تنقيح هذا العمل وصقله.

والله ولي التوفيق

ملخص البحث:

وقفت في دراستي هذه على البيئة الطبيعية في شعر "جبران خليل جبران" وتابعت هاته الرسالة بدراسة وصفية تحليلية، وقبل أن أخوض في جمع المفردات وعمل الإحصاءات، مهدت بجمع الأسباب الكامنة وراء ذلك الاستخدام الهائل للطبيعة وحضورها في شعر المهجر فوجدت الاغتراب، وروح الوطنية الملتهبة في نفس الشاعر من أهم الدوافع التي دفعته إلى التعلق بذكريات الوطن، وخاصةً اللجوء إلى الطبيعة (الغاب) فانجذب إليها، ووضع بذلك القارئ في روضة من رياض الأزاهير الفوّاحة المتعشّشة بنقيّ التّوار، وبياضه ونمير الماء وعذوبته وزقزقة التغريد، وحلو شدوه وسرح بخياله في عالم الغاب حيوانات وجمادات.

واتبعت في ذلك خطة اشتملت فصلاً ثلاثة وهي كالاتي:

ففي **الفصل التمهيدي** من الرسالة تحدثت فيه عن المسار التاريخي للبيئة الطبيعية على مرّ العصور الأدبية بدايةً من العصر الجاهلي، مروراً بالعصر الأموي، وصولاً إلى العصر الحديث متخذةً نماذج لكل عصر من هذه العصور.

أمّا **الفصل الأول** فتعرضت فيه إلى حياة "جبران خليل جبران"، وعن أثره في هكذا موضوع ثم عرضت إنتاجه الأدبي الحافل بمختلف الموضوعات، مبيّنةً فيه مختلف أعماله الشعرية والنثرية بالتفصيل.

وفي **الفصل الأخير** تناولت البيئة الطبيعية في شعر "جبران خليل جبران" مستمدةً في ذلك لنموذجين من أهم أعماله الشعرية وهي مطولة (المواكب) ومجموعته (البدائع والطرائف) دراسةً وصفية تحليلية.

وختمت دراستي ببعض النتائج التي توصلت إليها، وأنهيتها بمجموعة من الاقتراحات التي بدت لي من خلال هذه الدراسة، ووجدت حينها "جبران خليل" محباً للطبيعة، عاشقاً لها، ينتقل بين أحضانها، وكأنتها الأم الرعوم، وكان بدوره وفيّاً للمدرسة الرومانسية، متأثراً بأقطابها مفضلاً حياة الغاب- **حياة الوحدة والهدوء**- لذلك جاءت تكرارات ألفاظ البيئة الساكنة أكثر من المتحركة.

وفي النهاية هذا جهدي أضعه بين أيديكم، وكل عمل إنساني يعتريه النقص.

Summary:

I stood in my studies of these on the natural environment in the poetry of "Khalil Gibran" and followed the following message to study descriptive analytical, and before you go into the collection vocabulary and business statistics, paved collect the reasons behind the use of the massive nature and its presence in the hair Diaspora found alienation, and the spirit of patriotism burning in the same poet of the most important motives that led him to hung up memories of the homeland, and in particular the use of nature (the jungle) Vangzb it, and put this reader in the gardens of Alozahir Almtashashh Nawar, and albumen and Namir water and and peep Twitter, and sweet Shidoh was discharged envision in the world of jungle animals and inanimate objects.

And followed the plan included three chapters are as follows:

In the introductory chapter of the letter talked about the historical path of the natural environment over the centuries literary beginning of the pre-Islamic era, through the Umayyad era, right down to the modern era taken every age models of these ages.

The first chapter of it to life, "Khalil Gibran", and its impact on so Multi then offered production track record in various literary topics, indicating the various works of poetry and prose in detail.

In the final chapter dealt with the natural environment in the poetry of "Khalil Gibran" derived in two models of its most important poetry is lengthy (processions) and his group (Badai and Traúv) descriptive and analytical study.

She concluded my studies with some findings, and a set of proposals which seemed to me through this study, and found the time "Kahlil" a lover of nature, loved her, moving between the bosom, like a mother Alraum, and was in turn loyal to the school romance, died Boqtabha preferring life jungle - a life of unity and calm - so it came occurrences of words static environment more animated.

In the end, this my best to put it between your hands, and all humanitarian action marred the shortfall.

إذا كانت الطبيعة قد عُرفت في الأدب العربي منذ تقدم عصوره، وكانت غالبًا طبيعةً متجهمًا وقانطةً يتنازع فيها الشاعر بقاءه، ويعتريه الرعي بين ظهرانيتها، وفي أحيان كانت مرتعًا له للهو، يذبح الذبائح مع صحبه على ماء، أو يصيد طريدةً، أو يقع على واحدةٍ أو روضةٍ.

وقد كانت الطبيعة بدورها مادةً للوصف حينًا، ومادةً حينًا آخر لنقل الحالات النفسية والأفكار والمعاني لذلك كثرت دواوين الشعر التي نظمها أولئك الشعراء وبخاصة إخواننا العرب الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، إلى نيويورك وسان باولو وغيرهما من المدن هناك، وجمهورهم ممّن نشأوا في الشام (سوريا ولبنان) في جحور هذه الطبيعة الأنيقة، وبين جبالها، أو بساتينها البهيجة حيث تفتحت عيونهم وآذانهم على صحف الكتب السماوية، وترتيلها العذبة، ونعموا بغذاء الفكر الحديث في مدارس البعثات الدينية الأجنبية.

فمن البواعث التي دفعت المهجريين إلى التأمل، طبيعتهم الشرقية التي تحمل كل ما للشرق من خصائص وسمات، وصفات وراثية وسيكولوجية نمّت وترعرعت مع البذرات الأولى للمكونات المختلفة لهؤلاء الأدباء لذلك كان الشرقيون يميلون إلى التأمل أكثر من الغربيين لروحهم التي سرت فيها شرايين البداوة، والشعور الفطري الفسيح الذي يتجول فيما حوله، ويسافر في الآفاق يقرأ لوحة الوجود، لا تشغله الآلة، ولا ضجيجها. وكان من ذلك تراث أدبي حافل من شعر ونثر مثله أروع تمثيل في أمريكا الشمالية، وفي العالم العربي كلّهُ "جبران خليل جبران" الذي يُعدّ من أروع من صوّر الطبيعة أجمل تصوير كيف لا وهو سيّدها الشغوف.

وأستطيع أن أجد كل ذلك مطبوعًا في شعره وشعر أصحابه، فهم ثائرون على الأوضاع القديمة في الشعر، ثائرون على مختلف موضوعاته، كل ذلك من أجل لجوءهم إلى الطبيعة حيث السكون والفرح، فهم مشغوفون بها ذاتيون فرديون أخلصوا لمشاعرهم واستمعوا الوسوس نفوسهم، فصاغوا ذلك كلّهُ شعرًا عذبًا. وفي هذا الفصل سأبرز هذا الشعر

الذي حوى هؤلاء، وفتح ذراعيه ليخضن هذا الغريب- جبران خليل جبران- الذي اتخذ الطبيعة الأم الرعوم، فهي الحياة، وهي الممات.

ومن خلال ما تقدم أريد أن أستمد في دراستي لهذا الفصل نموذجين من أبرز أعماله الشعرية، عنيتُ مقاطع من مطولته المسماة (بالمواكب) وقصائد من مجموعته الموسومة (بالبدائع والطرائف) دراسةً وصفية تحليلية.

أولاً: حضور الطبيعة في شعر المهجريين الشماليين:

لقد أسهم شعر المهجر في إغناء الأدب العربي الحديث، فاخترن في ثناياه كثيرًا من الموضوعات التي لا تزال بحاجة إلى دراسة، ووقفة تأمل، ولعلّ الطبيعة من الموضوعات التي شاعت في شعر أدباء المهجر بشكل ملحوظ، فقد اهتم العرب بالطبيعة اهتمامًا عظيمًا، ووصفوها وصفًا منوعًا، وذلك لأنّ حياتهم ارتبطت بها إلى حدّ كبير وشعرهم في الطبيعة عظيم من ناحية الكم والكيف معًا، لذلك لم يترك الشاعر العربي ناحيةً من الطبيعة إلا وصفها، وأتقن الوصف والتفصيل، ولعلّ التفاتهم إلى الطبيعة بألوانها ومناظرها الخلاصة دليل على عظم اهتماماتهم بها.¹ لذلك سار شاعر المهجر على منهج أجداده الشعراء متعلقًا بأرضه وترابها وسمائها، فعندما سافر إلى بلاد الغرب ظلّ متعلقًا بوطنه معتبرًا شعره جسرًا يعبر من خلاله روحًا إلى وطنه، وذكرياته التي عاشها.² فأخذ الشعراء الذين ارتحلوا إلى الغرب ينظمون الشعر، ويكتبون القصص مستهدفين في أدبهم مختلف نواحي الحياة، والطبيعة، ومشاكل النفس الإنسانية.³

فلم يجد شاعر المهجر حريته التي كان يتوق لها إلا في الطبيعة التي خلّت من الأتراك، وصخب الحياة الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية.⁴

¹- يُنظر، محمد النوتهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، تر أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الإسكندرية، د.ط، 1985م، ص386.

²- عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص17.

³- المرجع نفسه، ص20.

⁴- يُنظر، محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1973م، ص307.

وهكذا فقد كثر شعر الطبيعة عند المهجريين، وقد كان لجوءهم إلى الطبيعة لنفورهم الشديد من ضجيج الحياة المادية وصخبها، وعدم قدرتهم على التلاءم مع تلك الحياة، وتلك الحياة المادية بما فيها من تعقيد شديد هي التي طمست صفاء النفس البشرية وكيانها بأغلال الشر والجشع، والأنانية، وهم في ذلك كلّه تغلب عليهم روح الاتجاه الرومانسي الذي تأثروا به كل تأثر كما ذكرت آنفاً- فكانت الطبيعة بصفائها هي الصورة المقابلة لتلك الحياة القائمة التي يشقى بها بنو الإنسان....

ومن ثم كان شعرهم في الطبيعة يختلف كل الاختلاف عن تلك الصورة التي كانت تبدوا عليها الطبيعة في الشعر العربي القديم، فلم يكن الشعر عندهم وصفاً لمظاهر الطبيعة من الخارج، وإنما وجدنا هؤلاء الشعراء يمتزجون بتلك المظاهر ويعبرون عن كل ما امتلأت به نفوسهم من أحاسيس ومشاعر إضافةً إلى إلقاء ما في عقولهم من أفكار وفلسفات داخل وعاء الطبيعة، وليس من شك في أنّ شعراء المهجر قد خلعوا على موضوع الطبيعة- الموروث القديم- روحاً جديدة جعلته روحاً تفيض بالجدّة والتطور فأثروا بذلك ديوان الشعر العربي الحديث، وإذا تفحصنا دواوين شعراء المهجر لوجدنا شعر الطبيعة متغلغلاً بين تلك الدواوين، بل رأيناهم يأتون بمظاهر الطبيعة في عناوين دواوينهم وقصائدهم على نحو ما وجدناه عند "إيليا أبو ماضي" و"ميخائيل نعيمة" في الفصل السابق، إضافةً إلى ما أجده من عناوين قصائد هؤلاء الشعراء التي حملت اسماً لأحد مظاهر الطبيعة أو ارتبط عنوانها بتلك المظاهر التي تدل على مضمونها.¹ ومن ذلك على سبيل المثال أذكر (الغابة المفقودة) "أبى ماضي" و(النهر المتجمد) "لميخائيل نعيمة"، و(البلاد المحجوبة) "جبران خليل جبران".

وأرى كذلك بأنّ هؤلاء المهاجرين قد حملوا كثيراً على حياة المدينة، وتمردوا على حياة الآلة، ودعوا إلى حياة الغاب والطبيعة، حياة الفطرة والبساطة، ونحن لا نقرأ لهم حتى شعر بضرب من الحس المشترك بينهم فهم أصحاب منزع جديد في شعرنا، وهم يدورون في

¹- أحمد عوين، الطبيعة الرومانسية في الشعر العرب الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2001م، ص82-83.

مجالات جديدة، وتستطيع أن ترجع إلى دواوينهم لتجد مصداق ما نقول من هذا الجديد، وذلك النزوع إلى الانطلاق الشعوري، والتعلق بالطبيعة، ومجالي جمالها وتصوير الإحساسات النفسية، والمشاعر الذاتية، لذلك كان ديوان الشاعر الأمريكي يتميز بنفسية خاصة تعمه وتجري فيه، وهذا طبيعي لأنه يُعبر عنه صاحبه عن خوالج نفسه ويصدر عن مكنون ضميره، ولعل ذلك ما جعل الغموض يجري في جوانب كثيرة من هذا الشعر، ومرد ذلك إلى أن شعرهم تصوير نفس بكل ما يقع عليها، وكل تصوير نفس صادق يلتف في ثياب من الغموض والإبهام، يحكم أن النفس وخواطرها محيط لا حدود له، هو محيط يكثر فيه العواطف، ويكثر الضباب، ويكثر الانعتاق من المحدود إلى اللانهاية.¹

وكما هو معروف أن أدباء المهجر جميعهم من أخلص أبناء الطبيعة وعُشاقها، فهم عميقوا الإحساس بها عيمقوا الحب بها، والاتصال بها، يرون في كل ما فيها أشياء حية: تحب وتكره، تسعد وتشقى، تفرح وتحزن وترجو وتخيب، وهم لذلك يناجونها ويستلهمونها، ويتمثلون بها، ويبثونها آمال قلوبهم وآلامها، وأشواق نفوسهم، وحيرتها وهي توحى إليهم بالحنين، إذ تذكرهم بما كانوا يجدونه من جمالها الفئان في ربوع بلادهم ولا تُوحى إليهم بالتأمل العميق في أسرارها، وما أبدع الله فيها من معجزات تُحار فيها العقول، وتُوحى إليهم بالنوازع العذبة، والأفكار السامية، والأخيلة البعيدة كأطراف الأفق المترققة كالجداول المنسابة اللطيفة كأنسام أيار، والرحيبة كصفحة الفضاء، فالذي يطّلع على إنتاجهم الأدبي يرى أن للغاب حظاً وافراً من هيامهم، فهم يرون في حياته مثالية سامية.²

¹ - شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 249-250.

² - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 98.

وفي مثل هذا المستوى رؤيتهم للطبيعة، فلم يعد همهم نقل صورة وصفية عن أي مشهد من مشاهد ما بقدر ما أصبح همهم التأمل من خلال الوحدة في الليل، وفي الإنسان ومصيره، وهمومه.¹

وعليه أستطيع أن أقول بأن الشعر العربي لم يخل من النظرة التأملية للطبيعة، مزج فيها الطبيعة بالحب والفكر وشخصها، وخلص عليها صفات الأحياء على نحو يقترب من رؤية الشعر المهجري. وليس من الإنصاف أيضاً أن نقول كما قال أحد الباحثين أو كما يقول كثيرون منهم "بأن الطبيعة عند الشاعر العربي لم تعد مثار تأمل، واستغراق في مظاهرها". فتأمل الطبيعة والكون من خلال الإنسان، وهو ما لم نعهده في الشعر العربي القديم على طول أماده، وضخامة ديوانه.²

فالمهجريون اتخذوا من الطبيعة كذلك أداة لتصوير أزمة في نفوسهم تشوقها للحرية فأجروا على لسانها مشاعرهم، ونفّسوا عن رغباتهم المكبوتة وأحسوا من خلالها بمشكلات المجتمع.³ كما اتخذوا من الطبيعة أيضاً معلماً مثالياً يعلمهم مبادئ الإيثار والإخاء، والحب والعدالة، والمساواة.⁴

ومجالاً كذلك لطرح الشكوك، ومناقشة الإشكالات الحياتية والكونية، وهذا بطبيعة الحال يحيلني إلى التساؤل:

يا ترى ما الفرق بينهم وبين الرومانسيين الأوروبيين؟

هو في حقيقة الأمر فرق جوهري إذ أنّ هؤلاء لم يكونوا يندمجون في الطبيعة ليفكروا، ويستخلصوا الحجج، أو يطلوا مشكلات كلا، ولكن ليحملوا، ويستسلموا لمشاعرهم، أمّا شعر المهجر فيحفل بالموقفين معاً موقف الاستسلام للأحلام عبر مشاهد الطبيعة وموقف التفكير

¹ - أنس داود، رواد التجديد في الشعر العربي الحديث، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، د. ط. د. ت، ص72.

² - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص412.

³ - المرجع نفسه، ص418.

⁴ - المرجع نفسه، ص421.

من خلالها في مشكلات الحياة والكون.¹ وأخذ على سبيل المثال الشاعر "رياض المعلوف" يقول عن الطبيعة مجيباً عن سؤال وجهته إليه: الطبيعة هي هبة الله التي أنعم بها على بني البشر... لوجه الله!، وهي أحن عليك من الأم التي ولدتك...

أجل إذا اتخذناها من الناحية الإنسانية فلكل مخلوق بشري طبيعته الخاصة، ومزاجه لذلك قيل غلب الطبع التطبع! وهي جذوره العميقة التي يتطبع بها... وطبيعة الأشياء هي طابعها الذي يتسم به. ومن لطائف طبيعة الكون الأزاهير، والأشجار والأثمار والأطيوار... والأنهار والجبال والوهاد، والليل والنهار، والأقمار والنجوم، والغيوم والمناظر الخلابة، والألوان الزاهية التي تأنس بها العين، وينتعش بها القلب.²

ومن المؤكد أنّ المهجريون في أغلبهم يحثون إلى الحياة في أكناف الطبيعة بالقرب من مشاهدنا الحبيبة حياة فطرية بسيطة تحيا من خلالها فضائل النفس، وتتمجد المثل العليا، وتتخلص من شوائب المدينة، وما تقتزفه في حق الإنسان روحياً واجتماعياً من آثام... لذلك كانت للطبيعة الحية دور لا يستهان به في شعر الطبيعة وأدبها في المهجر فلم يقف تجاوبهم الشعوري، وتعاطفهم الروحي، وإحساسهم العميق عند الزهر الناظر والأرج الضائع، والجماد الناطق، وتبرج الطبيعة في الربيع، وتجهّمها في الخريف والشتاء، بل عاشوا كذلك بقلوبهم ومشاعرهم مع طيورها وحشراتنا، وحيواناتها عاطفة بعاطفة وإحساساً بإحساس، فهم مع الفراشة الهائمة، والنحلة الحائمة، والدودة الواهنة والنسر الشامخ، والحمامة الوديع، في تعاطف ومودة، وألفة وامتزاج.³

وزبدة القول: هكذا كان شعر الطبيعة عند المهجريين حيث يمتزجون فيه بالطبيعة ويتوحدون مع مظاهرها، ويفرغون ما في نفوسهم في مشاهدنا المختلفة.⁴ فالطبيعة عند

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 426.

² - المرجع نفسه، ص 427.

³ - المرجع نفسه، ص 429 - 430.

⁴ - أحمد عوين، الطبيعة الرومانسية في الشعر العرب الحديث، ص 91.

الرومانسيين العرب هي الأم الرعوم- كما ذكرت- التي تعاملنا بالصفح والتسامح فنعاملها بالبحود والنكران، ونجد ذلك في (أيتها الأرض) "جبران خليل جبران"، وكما يراها "أبو ماضي" في (التينة الحمقاء) المعلمة التي تعلم الإنسان البذل والعطاء والطموح والمثابرة على العمل والثورة على نظامنا الحياتي الرتيب.¹

ويبدو أنهم يفضلون من فصول السنة، فصل الخريف لأنه يتفق ونفوسهم الآمية، فهم يتغنون به لأنه فصل الضباب والجليد، وفيه تتجرد الغصون من أوراقها، وتعصف الرياح بالأوراق الجافة، ويقف نبض الحياة في الأشجار، وهذه المناظر تُوحى بالذبول والتحلل والفناء² ففي الخريف كذلك تتعكر الطبيعة، وتعصف الرياح ويعم الضباب والوحشة والكآبة، وتتلاقى الطبيعة الواجمة مع طبيعة الرومانسيين الساهمة، ونفوسهم المريضة التي لا ترى في الحياة إلاّ القلق، والاضطراب فالزهرة في نظرهم، التي غاص أريجها وذوى سحرها، وخبث بسمتها هي الشباب الذي نضب منه معنى الحياة، ولعبت فيه العواصف الهوجاء. والكلام على الخريف يؤدي إلى الكلام على العواصف والمطر.³

وعليه فقد كان هؤلاء الشعراء يفردون قصائد زاخرة بما يدل على عناصر الطبيعة وهم في ذلك كله يصبون أفكارهم وفلسفاتهم في الحياة والكون بصفة عامة، ويبثون تلك الطبيعة همومهم، وأحزانهم فتبدوا الطبيعة من بنى الإنسان. وفي النهاية يمكن القول بأنّ الطبيعة قد سرقت الأضواء من المدينة، وجذبت قلوب الشعراء إليها، وذلك لما في المدينة من مواصفات اجتماعية يسمها التكلف، وترسم حدودها المنافع والأغراض الشخصية فضلاً عن وجودها سداً أمام انطلاقات الخيال، وانفساحات التأمل.

¹- فايز الترحيني، الدراما ومذاهب الأدب، ص186.

²- محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص156.

³- فايز الترحيني، الدراما ومذاهب الأدب، ص186.

ثانياً: تجليات البيئة الطبيعية في نماذج من شعر جبران:

في مرابع تجوبها تراتيل الأجراس صباح مساء، وتوشىها مواسم الطبيعة الزاهية المتجددة، وما ينفك الضباب في أجوائها يتهادى رسائل تتواصل بين الأرض والسماء حتى كأنّ هذه المناظر، أو المشاهد في لوحات طبيعية، أو صور فنية، أو ينابيع إلهام وجمال خالد.

وعليه يمكن القول: "في كل شاعر مغترب نفس رومانسي هو محور الذات الحاملة حين تلجأ إلى الهروب من قسوة واقع خارجي، يُصبح احتمالته أكثر من أن يُطاق والطبيعة أحد ملاذات شعرائنا الرواد في المرحلة الأولى من اغترابهم في أقل تقدير، فربما كان (عالم الطبيعة البريئة مصدر راحة) الشاعر الحزين (بعيداً عن التعقيد والتكلف، والرياء الذي يلزم الحياة المادية)".¹

والمقصود بالطبيعي هنا الفطري والعفوي في مقابل الصناعي المتكلف، وعليه فقد انطلق الرومانسيون العرب ثائرين على التقليدية التي قيدت القصيدة الكلاسيكية وذهبت بجمالها، لذا اعتبروا الإتياع والتقليد ابتعاداً عن روح الشعر، ممّا يؤدي إلى إيثار البساطة والعفوية، والتركيز على العالم الحقيقي الطبيعي وهذا ما ألفناه لدى "جبران خليل جبران" كون الطبيعة تجسّد العودة إلى عالم التطهير والنقاء، بعيداً عن عالم الزيف والنفاق وكذا العودة إلى الأصل، وليس إلى ما قيل عن الشيء في الشعر (الفرع)² على حدّ تعبير الدكتور "عباس بن يحيى" في كتابه (مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر) فحين ينقطع ما بين الإنسان والإنسان، وعندما يضيق المكان أو الزمان بالشاعر، يقيم هذا فضاءه في داخل ذاته، أو يُقيمه خارجها في غابة، أو في كوخ، أو في ريف ناءٍ، ولذلك فلا غرابة إذا ما

¹ محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، د.ط. 1999م، ص77.

² عباس بن يحيى، مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، د.ط، د.ت. ص102.

امتزجت مشاعر القري بين الشاعر وبين الطبيعة الريفية بمشاعر الغربة وينصهر لديه الحنين والتمرد في بوتقة إبداعية واحدة، فليست الطبيعة إلا صورةً لحياتنا النفسية.¹ وفي هذا المزمار أجد "جبران خليل جبران" رجل الطبيعة الفنية التي توترت أعصابها، ورقت ملامسها، ودقت مناطق حساسيتها فكانت عالمًا مزيجًا من فكر عميق، واستماع إيحائي وإشراف نوراني، وعاطفة متحسسة لأخفى المعاني وأخفى المحسوسات.²

ومن المعلوم أن "جبران خليل جبران" من رواد الأدب العربي الحديث، وكانت شهرته قد بلغت الذروة والقمة في الأوساط الأدبية، ولاسيما في أوساط الأدب العربي المهجري.³ كيف لا وهو صاحب الدم الشرقي، والطبيعة الشرقية، فهو لم يكن بحاجة إلى أن يسعى إلى الشرق ليستعير منه الانفعال بالطبيعة لأن الشرق بروحه الفياض، وطبيعته الخلابة كان حيا نابضًا في قلبه.⁴

وعليه ينطلق "جبران" مع الطبيعة انطلاقاً المتفاعل الخالق والمبدع، لتكون جزءًا منه فتعنيه في ذاته كقوله الرائع على لسان (البنفسجة الطموحة) "لقد كان بإمكانني الانصراف عن المطامع، والزهد في الأمور التي تعلو بطبيعتها على طبيعتي، ولكن أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم: إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود، فتمردت نفسي على نفسي، وهام وجداني بمقام يعلو على وجداني".⁵

وكما هو معروف أن للمناظر الطبيعية أثر كبير في الحياة النفسية والمادية، فإذا وجهنا الطرف إلى حياة المهاجرين العرب رأينا كيف جاء ردّ الفعل لهذه المناظر الطبيعية والمظاهر المادية التي لم يعتدها، ولم يألفها في هروبه من الواقع مفتشًا عن الطريق إلى

¹ - محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد)، ص 77.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 225.

³ - محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، العدد 16، ص 157.

⁴ - أنس داود، رواد التجديد في الشعر العربي الحديث، ص 73.

⁵ - كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج 2، ص 405.

الروح المثالي الذي تخيله. وفي الحقيقة أنّ "جبران" لم يشعر تجاه هذه الحياة الصاخبة بأي توافق أو انسجام بل على العكس لقد كانت "جبران" زعامة في¹ هذا النوع.

من الشعر - شعر الطبيعة- في شعراء المهجر الذي يمجد الغابة، وذلك حينما كتب ثنائياته الشعرية في مجموعته التي سماها (المواكب)... حيث كان غرضه الأساسي من هذه المجموعة هو: التمرد والثورة على الحياة المعتقدة المشوشة، والدعوة الحارة للرجوع إلى الطبيعة الساذجة البسيطة، ويقصد هنا "جبران" بالطبيعة حياة البساطة والسهولة والبعد عن الكلفة، وعدم التقيد إلى غير ذلك مما يتمثل في الطبيعة.²

فهو أراد أن يحدّد الغاب وطبيعة الحياة فيه، فإذا هذا المطلق اللامحدود، ينحصر في حدود صغيرة في لبنان في منظر طبيعي واحد، وإذا الغاب نقيض القصور، مليء بالسواقي والصخور، يضحك فيه الفجر، وتتدلى العناقيد من أعنابه، وإذا الغاب هو الطبيعة الجميلة.³ لذلك توافر معجم الشعراء الرواد على العديد من ألفاظ الطبيعة، وإن كان يتفاوت من شاعر لآخر، كالفرّاش، والريح، والعشب، والنسيم، والعندليب، والهزار والبلبل والبوم، والغراب، والورد، والزهر، الحقول، الرياض، الربيع، وباقي الفصول والبحر، والنهر، والشاطئ النجوم، الليل، الصباح، المساء، والسحر، والكواكب وغيرها⁴ وكل هذه الألفاظ أجدها متغلغلة في شعر "جبران" وفي نثره أيضاً.

ومجموعته (المواكب) التي جاء بها طريفة في أسلوبها، قد اصطنع صاحبها الطريقة الحوارية، في الشعر لعرض أفكاره وآراءه. هناك في وسط الغابة يتقابل شيخ قد كلّ الشيب رأسه وكساه تاجاً من الوقار، مع صبي في عنفوان شبابه خرج يحمل نايه يدعوا الناس على أحنانه إلى ولوج الغابة معه حيث البساطة المجردة من التعقيد وخرج الشيخ من المدينة

¹ - محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، العدد 16، ص 163.

² - المرجع نفسه، ص 164.

³ - محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر، عمان، ط2، 2006م، ص 69.

⁴ - محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد)، ص 77.

المتقلة بأعبائها، وهو قد خبر ظروفها وجرب أحوالها، فاكتسب منها نظرةً متشائمةً إلى الناس، والحياة فيأخذ في تعداد مساوي العالم الذي جاء منه، والشور التي جُبِلَ عليها أهله.¹ هذه المطولة المسماة (المواكب) هي ملحمة شعرية طواها "جبران" على خواطر فلسفية في الخير والشر والدين والحق والعدل، وما إلى ذلك من شؤون الحياة المختلفة، والقصيدة أشبه بحوار بين شخصين كما قلت - بين شيخ وشاب - وما الصوتان سوى صدى النزاع الداخلي في نفس "جبران"، ما بين إيمانه بفطرة الإنسان الإلهية وبين ما كان يُبصره في حياة الناس من بشاعة ووجع وتشويش²، فعند قراءة هذه القصيدة تتبثق في قلوبنا شلالات ضياء، وتتفجر في أرواحنا طاقات اقتدار، وتتفسح أمام عيوننا أجواء لا ترى نهايتها، ويشرق وجداننا بوميض خاطف، وتتشكل في عقولنا رؤى بلا حصر، وتولد ولادة جديدة، وتتحول خلقاً آخر.

(فالمواكب) التي أبدعها "جبران" تعدّ قطعةً جمالية خالصة، وكأنه يريد أن يبعث "أفلاطون" و"سقراط" ليصفا الحياة من جديد في ثوب المدينة الفاضلة من خلال فلسفتها في دنيا الحياة.

(فالمواكب) هي أول تجسيد شعري لفكرة الغاب باعتباره الوطن البعيد حيث الحب والسلام وهي قصيدة جديدة في موضوعاتها وأساليبها، ولم يعرف الشعر العربي قبلها قصيدة تأملية في مثل طولها.³ فهي ذات المائتين والثلاثة أبيات، فيها مائة وخمسة وعشرون بيتاً تدور حول الغاب، وقدسسية الغاب، ووحدانية الغاب وسعادة الغاب، وفيها يقابل "جبران" بين حياة المجتمع ذات الفروق والتقاليد، والمعاملات المبنية في الغالب على الرياء، والأهواء

¹ - محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، العدد 16، ص 164.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 232.

³ - فوزي عطوي، جبران خليل جبران، عبقري من لبنان، دار المعارف، بيروت، د.ط، د.ت، ص 85.

والشخصية، وحياء الغاب الرادعة البسيطة التي تضيع فيها الفروق كلها وتستوي فيها سائر المخلوقات لأن لها مشيئة واحدة تجريها على المجتمع ببساطة، ومن دون تفریق.¹

إنّ (المواكب) بناء شعري جديد- كما ذكرت سابقاً- في التراث العربي، وأول صوت يرتفع مندداً بالمجتمع الأمريكي المادي القاسي، وأول نغم ينداح في أمواج كنسمة رقيقة محملة بالشوق تتغنى بجمال لبنان لأنّ (المواكب) أول محاولة لفلسفة الحنين اللاعج في صدر الشاعر المغترب، وتحويله من زفرات غنائية بسيطة ولمحات عاطفية انفعالية إلى تأمل ونظر ومقارنة متفلسفة لأنها أول مطولة شعرية تركز على محور الطبيعة وتفكر من خلالها في مشكلات الحياة، وقضايا الوجود، والعدد والقيم الإنسانية، وتحدث بثلاث أصوات صوت يحمل ضجر الحياة ويتصدر تحت نقل أوزار المجتمع الإنساني وصوت يمجد الحياة المنطلقة في أكناف الطبيعة، وصوت يذوب وجداً بعالم النغم الأمثل...²

وعليه ينفذ "جبران" في قصيدته (المواكب) إلى تصوير هذه الثنائية المقيتة، وكيف أنّ الإنسانية ضلّت طريقها حين استراحت إلى دروبها، ولم تتجه إلى الطبيعة، أو كما يسميها (الغاب) حيث الحياة النقية الكاملة وحيث لا سيادة، ولا عبودية، ولا خير ولا شرّ ولا غير ذلك من هذه القضبان التي تصنع الإنسانية منها سجنها المظلم المخيف.³

إذ يقول في مطلع (مواكبه):

الخيرُ في الناس مصنوع إذا جُبروا والشرُّ في الناس لا يفنى وإن قُبِرُوا
وأكثرُ الناس آلات تحركها أصابعُ الدّهر يومًا ثم تنكسرُ
فلا تقولنّ هذا عالمٌ علمٌ و لا تقولنّ ذاك السّيدُ الوقْرُ

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص98.

² - إخلص فخري عمارة، زهرات من رياض المهجر، دار الأمين، القاهرة، د.ط، د.ت، ص55.

³ - شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص264.

فأفضل الناس قطعانٌ يَسِيرُ بها صوتُ الرعاةِ ومن لم يَمْشِ يندثر¹
 "فجبران" هنا يرى بأنّ الناس لا يصنعون الخير من تلقاء أنفسهم إلا إذا أُجبروا على ذلك، أمّا الشرّ فهو متأصل بهم حتى أنّه يُبالغ فيقول يبقى الشرّ متأصل بهم حتى بعد الموت، أمّا الناس فأكثرهم ضعفاء أمام الدهر وأصابع الدهر تلعب بهم كدمية.
 وكأنّ البشر آلات فحسب، لكن سرعان ما تتكسر هذه الآلات أي وكأنّ البشر ألعاب طفل صغير يلهو بها، لكن لمجرّد أن يغضب يكسرها ويرميها؛ كذلك الحال بالنسبة للبشر وما دام الحال على هذا النحو فلا يجب أن نفتخر بعلم فلان وفلان، أو مجد هذا وذاك فأفضل الناس عبارةً عن قطعان تتبع الراعي وتسير خلفه، أو القوي، ومن لا تتبع هذا الراعي أو القوي المهيمن فإنّه يزول أو يضيع.
 ويقول:

لا ولا فيها القطيع	ليس في الغابات راعٍ
لا يُجاريه الربيع	فالشتا يمشي ولكن
للذي يأبى الخضوع	خُلِقَ ولناسٍ عبيدًا
سائرًا سار الجميع ²	فإذا ما هبَّ يومًا

فالشاعر يرى بأنّ لا حياة أجمل وأحب إلى النفس من هذه الحياة- حياة الغاب- التي لا ينتهي ربيعها. فهذا هو الوضع الأمثل فلا نجد راعياً، أو قطيعاً، ولا قائدًا ولا مقودًا والحياة كلّها ربيع مستمر بعد زوال الشتاء وكأنّ هذا الربيع لا يخضع للشتاء القوي، أمّا الناس فهم عبيد يتبعون القوي لمن يرضى الركوع للأقوى.

¹- جبران خليل جبران، المواكب، دار تلاتنيقيت، الجزائر، د.ط، د.ت، ص03.

²- المصدر نفسه، ص04.

ويقول كذلك:

أعطني النَّايَ وِغَنَّ
فألغنا يرعى العقول
وأنيُّنُ النَّايِ وأبقي
من مجيد وذليل¹

"فجبران" هنا أراد أن يؤكد بأن صوت النَّاي يؤكد صوت الغاب، فالغناء هو الذي يحفظ العقول وهو الخالد بعد زوال الثنائية السابقة.

وأجده في هذه المقطوعة يقول:

ليس في الغابات حزنٌ
لا ولا فيها الهُمومُ
فإذا هبَّ نسيمٌ
لم تجئ معه السُّمومُ
ليس حزنُ النفس إلاَّ
ظلٌّ وهَمٌّ لا يدومُ
وغيومُ النفس تبدوا
من ثناياها النجومُ²

ويظل "جبران" في هذا اللحن، فهو أراد أن يقول بأن الحياة الرياء والذل، وليس في الغابات رياء ولا ذل، والحياة فيها الدين والكفر وليس في الغابات دين ولا كفر، والحياة فيها العدل والظلم، وليس لغابات عدلٌ ولا عقاب، والحياة فيها القوة والضعف، وليس في الغابات قوي ولا ضعيف، ولا يزال "جبران" يسترسل في وصف هذه الإثنيينة التي تضغط بثقلها على صدر الإنسان، والتي لا يستطيع أن يتخلص منها إلاَّ بنزوحه إلى الغاب، حيث يخلص فيه من أوزار المدينة، وشروها وسخافاتهما، وسيئاتها، وكأنَّ هذه المدينة الجحيم بعينه.

"وكل هذا ثورةً على حياة المدينة، ودعوةً إلى حب الطبيعة وهي دعوة واسعة يدعوا فيها "جبران" مواكب الإنسانية جميعًا إلى عالم الغاب، حيث تشاهد ذخراً من الكمال المطلق لا حدود له ولا نهاية له".

وفي الطبيعة يتحقق ميزان العدالة، وفي أحضانها يتساوى العبد الحرّ، والقوي بالضعيف... فكلهم متساوون أمام أمهم، لا يشوب حياتهم رياء المدينة ولا خداعها، وفي هذا

¹ - جبران خليل جبران، المواكب، ص4.

² - المصدر نفسه، ص05.

السياق يتساءل "جبران": أمن العدل أن يُسجن الجاني لأنه حقير، ويعظمُ المجرمُ لأنه كبير؟ أمن العدل أن نحاسب سارق زهرٍ، ونترك سارق حقل؟ لعمرى إنها عدالة قاصرة. إذ يقول:

والعدل في الأرض يُبكي الجنَّ لوسمِعُوا به ويستضحكُ الأموات لو نطقُوا
فالسجنُ والموتُ للجانيين إنَّ صغروا والمجد والفخر والإثراء إنَّ كبرُوا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر وسارق الحقل يُدعى الباسل¹الخطر²
وقاتلُ الجسم مقتولٌ بفعلته وقاتلُ الروح لا تدري به البشر

وهذا التناقض الاجتماعي يُثير "جبران" فالسجن للضعاف، وإن كبروا فلهم المجد والفخر والعدل ضائع والجن يبكي لضياعه، والأموات يضحكون من تصرفات الأحياء إن بعثوا من رقادهم.³ فالألفاظ هنا تتناسق مع وجود التجربة التي سيطرت على الشاعر، فهو في صراع مع التناقض الاجتماعي، فالألفاظ هنا تتقابل فالبكاء والضحك، والسجن والمجد والصغر والكبر، والذم والاحتقار، والبسالة والخطورة، وقتل الجسم وقتل الروح... كلها مقابلات تتناسق مع الجو الذي أراد الشاعر رسمه في عناية وحس مرهف مهموم متشوق لعدالة نقية تعيد للإنسان البهجة والحياة.⁴

فهذه المدينة كما يراها "جبران" بعدلها الزائف، جعلته يجنح إلى الغاب حيث لا عدل ولا عقاب، فالكل متساوون تحت ضوء الشمس، "فجبران" يهدف إلى عدالة شاملة يكون فيها الناس سواسية.⁵ ومما يتراءى لي من هذه الأبيات أن "جبران" يسخر من قيم العدل عند الإنسان، فالعدل عند الناس يُبكي الجنَّ لأنه ليس بعدل والشاعر يُبالغ في قول هذا كما يبالغ كذلك في ضحك الموت على العدل، ويضرب لنا الأمثال فالجاني إذا كان صغيراً

¹ - الباسل: الشجاع.

² - جبران خليل جبران، المواكب، ص 09.

³ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 113.

⁴ - المرجع نفسه، ص 114.

⁵ - فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، ص 123.

يُعاقب، أمّا إذا كان كبيراً فإنَّ المجد والغنى والفخر له، فمن يسرق زهرة يُذمُّ ويُحتقر، لكن الذي يسرق حقلاً كاملاً فيُعتبر بطلاً باسلاً ومغواراً، أمّا قاتل الجسد فيقتل أمّا قاتل الروح لا يعاقب ولا يُسأل.

وها أنا أجد "جبران خليل جبران" يدعوا في مواكبه مثل أكثر الرومانتيكيين للانطلاق إلى الغاب- كما سبق الذكر- هرباً من مجتمع المدينة، حيث لا حدود جامدة ولا تفاوت أو درجات تتصاعد ظالمةً جائرة بل عاتية مستعصية، ومزعومة باطلة بين الخلق، بل هنالك الحياة المنطلقة الرحيبة الراضية لكل تحنيط، أو توقف عاجز، أو توهم ساقط. ثم يكمل فيقول:

لا ولا فيها العقاب	ليس في الغابات عدلٌ
ظله فوق التراب	فإذا الصفصاف ¹ ألقى
بدعة ³ ضدّ الكتاب	لا يقول السّرؤ ² هذي
إن رأته الشمس ذاب ¹	إن عدلُ الناس تلج

ففي الغاب لا يوجد عدلٌ ولا ثوابٌ، ولا عقابٌ، والسّرؤ هو الآخر لا يعترض على ظلّ الصفصاف إذا اقترب منه، أمّا عدل الناس فهو كالتلج سرعان ما يذوب أمام الشمس (الحقيقة) تظهر، والناس بطبيعة الحال يُقحمون الدين في كل شيء، ويعتبرون أنّ أي شيء لا يعجبهم يدعه ضدّ الكتاب المقدس، أمّا الغناء فهو يبقى عدل القلوب وصوت النّاي سيدوم بعد زوال العقاب والثواب.

¹ - جبران خليل جبران، المواكب، ص10.

. الصفصاف: نوع من الشجر

. السّرؤ: نوع من الشجر.

. بدعة: محدثة وضلالة.

وعلى أية حال فإذا كان "جبران خليل جبران" يدعونا من خلال هذه المقطوعات الشعرية التي قدمت سابقاً والتي تصوّر لنا حياة الغاب الساذجة، وحياة المدينة المتكلفة إلى أن نهجر المدينة لنقضي حياتنا في ضلال الغاب نستحم بالعطر ونتنشف بالنور. وتلك الدعوة فيها من الساذجة، بقدر ما فيها من الإحالة: فالغاب رمز الحياة المثالية القائمة على العدل والحب والمساواة، خالية بدورها من النفاق والمكر.

وهي حياة في قمة الهدوء والفرح والسعادة الدائمة، وفي هذا أجد "جبران خليل جبران" يقول وكأنه بين برهان شبه منطقي بواعث الدعوة إلى الغاب:

ليس في الغابات عزمٌ	لا ولا فيها الضعيف
فإذا ما الأسد صاحت	لا نقل هذا المخيف
إن عزم الناس ظلُّ	في فضا الفكر يطوف ¹

فلا يوجد في الغاب قوي ولا ضعيف، ولا خوف ولا رعب من أصوات الحيوانات فقوة الناس كالظلّ يطوف في سماء الفكر، فالناس في الغاب لا يُرعبون بعضهم البعض ولا الحيوانات وكأنّ الحيوانات كالإنسان.

و"جبران خليل جبران" أراه يعتمد التكرار كقوله: "ليس في الغابات" وهو ليس عيب فهو سمة تعبيرية فهو يعكس رغبة الشاعر في الإلحاح على شيء ما فهو أراد أن يؤكد فكرة ما أو ربّما يعكس تردده في الإفصاح عما يختلج في نفسه.

وقد بلغ "جبران" كذلك في (مواكبه) إلى تحطيم ثنائية الروح والجسد، يقول:

لم أجد في الغاب فرقاً	بين روح وجسَدُ
فالهواء ماء تهادى	والندى ماء ركذ ¹

¹ - جبران خليل جبران، المواكب، ص 11- 12.

والثرى زهر جَمَدُ

والشذا زهر تمادى

وهنا يستجلي الكاتب وحدة الوجود في الطبيعة، عبر الغاب، حيث تنتمي العناصر وتتكامل وتتلاحم عنده الفلسفة اليونانية في ذلك مع الانطلاق الروحي الشرقي.² فهو حطم هذه الثنائية (الوحدة في الغاب) وتتمثل في الذهاب إلى الغاب حيث الاعتناق مع الثنائية والانطلاق إلى اللامحدود، ومعانقة للمطلق.

ويقول "جبران" كذلك في إحدى مقطوعات هذه المطولة- "المواكب"- مصوراً جمال

الحياة في الغاب:

هل اتخذت الغاب مثلي	منزلاً دون القصُور
فتتبعت السواقي	وتسألقت الصخُور؟
هل تحممت بعطير	وتتشقت بئُور؟
وشربت الفجر خمراً	في كؤوسٍ من أثير؟
هل جأست العصر مثلي	بين جفنااتِ العنب
والعناقيب تدت	كثريات الذهب
فهى للصدى عيون	ولمن جاع الطعام ³
وهى شهدٌ وهى عطرٌ	ولمن شاء المدام

هذه المقطوعة هي وصف لبنان لا غير، وهي تختلف عن باقي المقاطع السابقة من حيث المبنى، وكذلك القافية، والشاعر يصف طبيعة لبنان الجميلة، ويتخيل نفسه بين أحضانها، أو ربّما ذكريات الصبا، حيث يرى بأنّ لا فائدة من الكلام لأنّ الفائدة الحقيقية هي

¹ - جبران خليل جبران، المواكب، ص26.

² - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص412.

³ - جبران خليل جبران، المواكب، ص30-31.

. صدى: الضمان.

. شهد: غسل.

. المدام: الخمر (شراب).

بالفعل (العمل) لذلك يجب على الإنسان أن بترك حياة القصور، وأن يتوجه إلى الطبيعة الجميلة، وهي حياة الغاب، حيث التمتع بالسواقي والتسلق على الصخور والعيش بين عطور الأزهار والنور الذي يبعث الدفء في الإنسان إن يُسكَّر الإنسان بمنظر بزوغ الفجر وطلوع الشمس، وفي ساعات العصر جالساً يتمتع بعناقيد العنب التي تشبه الثريات الذهبية، فهي شراب للضمان وطعاً للجائع، وطعمها كالعسل، ولمن شاء أن يصنع منها الخمر ولم يكتف "جبران" عند هذا الحدّ "فالتبيعة عنده هي رفيقة حياته وملهمته البارعة، فراها تترقق في أقاصيصه، وفي تأملاته، وفي شذواته وفي همسات قلبه وروحه ووجدانه التي جرى بها قلمه المبدع".¹

"وواضح أنّ ما تمتاز به هذه المقطوعة من موسيقى أثرية سببها لجوء الشاعر إلى وزن قصير، وهو مجزوء الرمل، لما فيه من خفة تتواءم مع شفافية التعبير، واللوحات الطبيعية المتتابعة، وفيما عدا ذلك أرى الشاعر يعتمد في تكوين بعض صورته على تراسل معطيات الحواس"²، و"التراسل" هو: أحد المفهومات التي برزت عند المدرسة الرمزية (جاءت بها) و"تراسل الحواس" هو ترجمة لمصطلح **Correspondance** و"شارل بودلار" أول من استعمله، ونعني به "خلع وظيفة حاسة على حاسة أخرى كأن يسمع الشاعر بالعين ويرى باللسان، ويذوق باللمس".

بحيث يتحول العطر - وهو موضوع حاسة اللمس - كما يتحول الفجر - وهو من حيث أضواؤه موضوع لحاسة الإبصار - إلى نطاق حاسة الذوق، ومن ثم لا يتحرّج الشاعر من أن يدعونا إلى الاستحمام بالعطر، والتنشف بالنور، وشرب الفجر خمراً، بحكم أنّ هذه المدركات جميعاً تنبعث من مجال واحد، وهو مجال الحساسية، وفي هذا ما يذكرنا بنظرية العلاقات الرمزية.³

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 99.

² - محمد فتوح محمد، الحداثة الشعرية (الأصول والتجليات)، ص 121.

³ - محمد فتوح محمد، الحداثة الشعرية (الأصول والتجليات)، ص 122.

"فجبران" في هذه المنظومة أراد أن يرسم للشيخ جمال الغاب من خلال تساؤلاته للشيخ "هل اتخذت هل تحممت، هل جلست...". فالشاعر إنّما يرمز بهذه الصورة الطبيعية الزاهية إلى السعادة الكبرى، والجمال الأعظم في الإيمان المطلق بوحدانية الحياة، وفي نزوع النفس إلى الاتصال بجوهرها الأسمى، مبدع الوجود وواهب الحياة، فالغاب هو رمز إلى جوهر الحياة الواحدة، أو هو - كما يفسره "ميخائيل نعيمة" - رمز إلى حقيقة الحياة الواحدة الشاملة التي لا تتجزأ ولا تتفرّق. وعندما يعرف الشيخ كل هذا عن الغاب الذي يدعو إليه الفتى العاري ذو الناي السحري العجيب، تثور في نفسه عوامل النزوع إلى هذه الحياة الجميلة - حياة الغاب ولكنّه يشعر بأنّ المدينة لا تزال تجذبه إليها، فهو فيها مقيد بسلاسل قوية من شهواته ونوازعه، وأنّى له أن يتملص من هذه القيود الثقيلة؟ لذلك يهتف في نهاية القصيدة مُعبّرًا عن هذا الصراع العنيف والدائر في نفسه وعن ألمه الشديد لعدم تمكنه من التخلص من قيوده الثقيلة التي تربطه بحياة المجتمع المناقفة¹

فيقول:

والعيش في الغاب، والأيام لو نظمت
لكن هو الدهر في نفسي له إربٌ
وللمقادير سُبُلٌ لا تُغيّرها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصرُوا²
في قبضتي لَعَدْتُ في الغاب تنتشرُ
فكلما رمت غابًا راح يعتزِرُ

"فجبران" يعتقد إذن بالقضاء والقدر، بأنّ الإنسان مُسَيَّر لا مُخَيَّر، ويؤمن كذلك بعد إمكانه الفرار من هذه الحياة التي حوله إلى حياة الغاب التي تمنّاها، ذلك لأنّ الحياة تدعوه

للمشاركة فيها حتى يؤدي رسالته التي قررت عليه.³

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 263 - 264.

² - جبران خليل جبران، المواكب، ص 33

³ - محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، العدد 16، ص 164.

وعليه "جبران" يصور هنا قيم المدينة الزائفة، ويجد لحياة المثلى في الغاب الذي فيه المساواة والعدل والحب والحرية، ثم في النهاية أراه يستسلم لتلك الحياة المناقفة، وهذا هو مصيره النهائي، "فتتغلب شهوة الحياة على نوازع الخير في النفس البشرية، وأنا هنا في حيرة من أمري، فهل كان "جبران" في هذا مصوراً لنفسه وحده، كما أراد "تعيمة" أن يصوره في كتابه عن "جبران"، أم هي صورة كل أبناء الحياة على السواء، ومنهم "تعيمة" نفسه".¹

وفي موضع آخر أجد "جبران" يتحدث عن الاستمتاع واللهو في الطبيعة، يقول:

هل فرشت العُشب لَيْلاً	وتلحفت الفضا
زهداً فيما سيأتي	ناسياً ما قد مضى؟
وسكوت الليل بحرٌ	موجه في مسمَعك
وبصدر الليل قلبٌ	خافقٌ في مضجَعك
أعطني النَّاي وغنّ	وانس داء ودواء
إنّما الناس سطورٌ	كُتبت لکن بماء
ليت شعري أيُّ نفع	في اجتماع وزحام
وجـدالٍ وضجيج	واحتجاجٍ وخصام؟
كلها أنفاق خُلد	وخيوط العنكبوت
فالذي يحيا بعجزٍ	فهو في بطءٍ يموت ²

وعليه يمكن القول بأنّ الذي يقرأ نجواه لليل ولقلبه (بين ليلٍ وصباح)، وللأرض يشعر بنشوة عميقة تهزّ جوانحه لهذه الصور التي تتواكب أمام خياله، فتترنم مع "جبران" بأغاريد الطبيعة الحنون التي تسمح على جبينها أنامل النور، والتي تجنحها الكآبة بخيوط من نسيجها الرهيف. وهنا يتحدث "جبران" من خلال هذه المقطوعة عن الاستمتاع في الطبيعة حيث الاستلقاء على العشب الأخضر، تحت قبة السماء، وبالذات في ساعات الليل ومنظر

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 264.

² - جبران خليل جبران، المواكب، ص 31-32.

السماء الجميل، وهذا الأمر يجعلنا ننسى المستقبل، وننسى الماضي، ونتمتع بسكون الليل العميق وكأنه أمواج تعزف مع لحن دقات القلب، ثم يعترف بعد ذلك بعجز اللسان لذلك هو يطلب الغناء لأنه علاجٌ وشفاء من الهموم والآلام، والناس ليسوا إلا سطور كتبت بالماء وسرعان ما يزولون وتمحى آثارهم وأسماءهم وكأنهم لم يكونوا لذلك لا فائدة من خصام الناس وحيلهم إزاء بعضهم البعض لأنّ الإنسان يفنى ويزول، فكأنها أنفاق الخالد وخيوط العنكبوت أي ضعيفة جداً، وما دام الإنسان عاجزاً فلا بدّ له من أن يموت الموت البطيء وفي النهاية يعلن "جبران" استسلامه- كما أشرت في الصفحات السابقة- أمام القدر، فهو لا يستطيع أن يعيش في هذا الغاب المنشود لأنّ الحياة بتعقيداتها لها نظم صارمة، وللشاعر مصالح لهذه الحياة، لذلك كلّمنا لجأ إلى الطبيعة امتعت عنه وهذا هو الطريق الذي فرضه القدر عليه، ولا يمكن تغييره، والناس بدورهم لا يحققون ما يريدون بسبب عجزهم.

فهذا الغاب هو الملاذ الوحيد في عالم كثير الزحام والجدال والضجيج، ذلك كما قال في البيت الخامس والسادس.

وهكذا يتضح لنا أنّ الغاب عند "جبران"، هو تلك الطبيعة التي كانت يقدها (وروزورث وكولردج، وبيك، وروسو، وثورو).¹

هذا على حين نرى بأنّ "جبران" يعتمد الوسائل الرمزية اعتماداً جزئياً، وقد يلجأ إليها في بعض صورته ثم لا يلبث أن يفئ إلى الوسائل التقليدية في تركيب الصورة من تشبيه واستعارة وكناية، وهو ما ألاحظه في تعبيره بافتراض العشب، والتحاف السماء، أمّا تصوّر صوت الليل وكأنه بحر يهدر أو قلب يخفق فهو بعض ما اعتاده الرومانتيكيون من إسقاط مشاعرهم على مظاهر الطبيعة، بحيث تُحلّ في الشاعر كما يحلّ هو فيها.²

فهذا الغاب الذي يفكر فيه "جبران" ليس إلاّ لبنان وطنه، ذلك الفردوس الذي فقده وأرض الأحلام التي غابت عن بصره وراء الأفق البعيد، وهو ينظر إليها من نيويورك فيرى

¹ - محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص 79-80.

² - محمد فتوح محمد، الحداثة الشعرية (الأصول والتجليات)، ص 122.

المسالك قد انسدت دونها، فيتألم وتظلم الدنيا في عينه، ويتمنى أو انسلخ من محيطه الصاخب محيط الآلة الصماء والبشرية المعذبة، ليتحد بوطنه، حيث لا يقتحم عليه الحياة إنسان، وحيث يتمتع بمناظره، ويشعر كأنه يحمله فوق صدره أو كأنه زهرة من أزهاره. إنه يعيش الآن في حياة ذات شقين، تُقام فيها حدود دائماً تفصل بين شيتين خير وشر، نور وظلام، ضحك ودموع، والحياة لا تحنو عليه، بل إنها تضغط على نفسه بهموم ووحشة، وغربة وبهذا الوجود المنقسم دائماً إلى شطرين، إنه يتعذب، وإنه يريد أن يخرج من هذا العالم ويرتد إلى عالمه القديم حيث كان يعيش فيما يُشبهه بتباشير الخلود¹، يقول في وصف غابة:

ليس في الغابات موتٌ لا ولا فيها القبور
فإذا نيسانٌ ولَّى لم يمت معه السرور
إنّ هول الموت وهمٌ ينثى طيِّ الصدور
فالذي عاش ربيعاً كالذي عاش الدهور²

وما هذا الغاب الذي يفنى عنه الموت، ويثبت له الخلود إلاّ لبنان العزيز الذي اندمجت حياته فيه، وكأنه لا يعيش في نطاق نفسه، إنّما يعيش في نطاق وطنه، ومتحدداً به حياة وفناء، ووجوداً وعدمًا.

وهذه الثنائية، والدعوة إلى تحطيمها تظهر كثيراً في أشعار "جبران" و"تعيمة" و"أبي ماضي" كذلك بصورةٍ أو بأخرى أكثر مما تظهر في أشعار غيرهم من المهجريين. و"جبران" يندمج في الطبيعة ليأخذ منها القياس المنطقي حتى يقيم الدليل على دعواه فيقول:

يا نفس إن قال الجهول الروح كالجسم تزول
وما يزول لا يعودُ

¹ - شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 266.

² - جبران خليل جبران، المواكب، ص 29.

قُولِي له إنَّ الزهور تمضي ولكنَّ البذور

تبقى وذا كُنْه الخلود

وهنا "جبران" يقع في عيب الاستطراد النثري والمقابلة المنطقية التي تتأى بشعره أحياناً عن الإيحاء المكثف، فهو عندما يقول "الروح كالجسم تزول" بأسره شكل القصيدة فيضطر إلى أن يحكي ما هو معروف فيقول: "وما يزول لا يعود".

و"جبران" في فهمه لطبيعة النفس لا يحدّد لها طبيعة فلسفية كما هو الشأن¹ عند فلاسفة الإغريق والإسلام والمسيحية، ولكنّه يخلط بين النفس والروح وهما في الغالب عنده بمعنى واحد.

وأجد "جبران" يقول:

وقلّ في الأرض من يرضى الحياة كما تأتبه عفوًا ولم يحكم به الضجر
لذاك قد حولوا نهر الحياة إلى

أكواب وهم إذا طافوا بها خدروا

فالناس إن شربوا سروا كأثمهم

رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا

فَهذا يُعَرِّدُ إذا صلّى وذاك إذا

أثرى وذلك بالأحلام يختمر

فالأرض خمارة والدّهر صاحبها

فليس يرضى بها غير الأولى سكروا

فإنّ رأيت أختاً صحوا فقلّ عجباً!

هل استظل بغيم ممطر قمر؟²

فهذه قصة بني الإنسان مع الحياة والدهر كما يراها "جبران"، فكما نجد فيهم من يرضى بالحياة العفوية التي لا يشوبها ضجرٌ أو مللٌ، وأكثرهم اتخذوا الحياة نبغاً يغترفون منه ما

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص348.

² - جبران خليل جبران، المواقب، ص06.

شاعوا من المتعة واللذة، فإذا استمتعوا بملذاتها انتشوا وفرحوا، وكأنهم يرهنون بهوهم، وعلى السكر بها قد خلقوا. و"جبران" يرى هنا بأنّ الناس ثلاثة أصناف، اثنان منهما يفسدان في الأرض، ويعربدان فيها، أحدهما إن قام في محرابه يصلي، والآخر إذا ملك المال، أمّا الثالث منهم فيعيش بأحلامه التي تدفعه إلى تحقيق مآربه، ولو كان ثرياً ومتديناً، وليس يرضى بالعيش على هذه الأرض إلاّ من سكروا بما فيها من زهرات الحياة، فهي تمثل الخمار، يديرها الدهر، فالعجب كل العجب من إنسان لم يسكر بها وظلّ صاحباً غير راضٍ بها ولم تتحكم فيه ملذاتها، فمن العجب أن نرى القمر يُستظل بغيم ممطر.

ثم ينتقل الشاعر ليمجّد ملاذه المفضل الذي يراه أحسن مكان يرتمي في أحضانه الرحيبة حيث لا عريدة ولا فساد، ولا سكر بدمام، أو خيال، فيقول:

ليس في الغابات سكرٌ	من مُدامٍ أو خيال
فالسواقي ليس فيها	غير إكسير الغمام
إنّما التخدير ثدي	وحليبٌ للأنام
فإذا شاخوا وماتوا	بلغوا سن الفطام ¹

"فجبران" يشير إلى أنّه لا يوجد في الغابات سوى السواقي التي تجري بماء الأمطار، ثم يحصر التخدير مشبهاً له بالثدي والحليب يرضعه الناس ما داموا شباباً وكهولاً، أمّا إذا شاخوا، وخارت قواهم، وتحولت اللذة عندهم إلى مرارة، وأحسوا بقرب الفناء لم يعد لهم رغبة في ملذاتها، ويتملكهم اليأس والحسرة، وفطموا أنفسهم عن الارتشاف من ثديها، وكذلك إذا قصرت أعمارهم وماتوا، ولم يجدوا عندئذٍ بداً من بلوغ سن الفطام المبكر.

وبحكم إنسانيته التي يدعوا الناس إليها، ويكافح من أجلها، وعليه يتعرض الشاعر في الأبيات الموالية إلى إقرار حقيقة وهي: أنّ ملاذه المفضل يخلو من الدّين، فلا طقوس تقام

¹ - المصدر نفسه، ص 07.

في الغابات، ولا كفر قبيح يعربد فيها، حيث لا صراع بين متدين وكافر وتأبى به لا يجب التدين حتى يتعايش الناس لأنّ التدين في نظره يفرق بين الناس وليس صحيحاً أنّ دين الناس ظلّ يأتي وبروح، فالناس تارةً يكونون قوميين، وتارةً أخرى كفاراً فليس هناك تمييز بين هذا وذاك، والحقيقة أنّ الدين لم يقيم، ولم يثبت بعد المسيح "عيسى - عليه السلام-" وبعد "محمد صلى الله عليه وسلم"، يقول:

ليس في الغابات دين

لا ولا الكفر القبيح

فإذا البابل غنّى

لم يقل هذا الصحيح

إنّ دين الناس يأتي

مثل ظل ويروح

لم يقم في الأرض دين

بعد طه والمسيح¹

فمن خلال ما تقدم مفاد هذه الأبيان أنّ الناس في الغابات سواءً، لا يقال فيها هذا على حق وذاك على باطل، لأنّ الدين لم يقم على الأرض بعد المسيح و"محمد صلى الله عليه وسلم".

ويواصل الشاعر عرض فلسفته في الحياة، كاشفاً مذهبه الذي يرى فيه الناس سواءً إلى

الخلو بالغابات وبظلالها، وتمتعوا بما فيها من عناصر الطبيعة الخلابة، يقول:

ليس في الغابات علم

لا ولا فيها الجهول

فإذا الأغصان مالت

لم تقل هذا الجليل

إنّ علم الناس طرّاً

¹ - جبران خليل جبران، المواكب، ص 08-09.

كضبابٍ في الحقول

فإذا الشمس أطلت

من وراء الأفق يزول¹

ففي الغابات لا يظهر فيها عالم يتباهى بعلمه، ويعلو من شأنه الناس ويبجلونه ولا فيها جاهل يسيء بجهله إلى غيره فيذلونه، وينبذونه لأنّ العلم كلّهما بلغ من اتساع ومهما كانت قيمته الاجتماعية إذا أطلت عليه الحقيقية الأبدية يتلاشى ويزول كالضباب في الحقول سرعان ما يختفي، وكذلك بفعل شمس الضحى فلا علم أفضل في هذا الوجود من الغناء، ولا شيء أبقى من نعمات الناي التي ترنُّ في أذن الزمان إلى الأبد، فيقول:

أعطني الناي وغنّ

فالغنا خير العلوم

وأنيب الناي يبقى

بعد أن تطفى النجوم²

فملاذ "جبران" كذلك الغابات التي ينعدم فيها التمييز الاجتماعي فلا يعرف فيها الحرّ من العبد، ولا السيد سيد حرّ، ولا عبد مملوك، فالكل يظهر فيها إنساناً طبيعياً ينسى مكانته أو مركزه، أو رتبته الاجتماعية فلا فخر سخف بصناعته الأمجاد، فالأمجاد التي تُشيد بها الناس ليست إلاّ فقاقيع تسبح على سطح المياه، وكأنّ الشاعر هنا يذهب في فلسفته في الحياة مذهب الطبيعيين الذين يرون أنّ كل شيء يتفاخر به الناس ما هو في الحقيقة إلاّ مُباهاة زائفة، فالشجاعة هي في الحقيقة رغبة في الخلود، فالأمجاد في نظرة سخافة وهزأة تطغى على عقول المغفلين من الناس، فلا يقول شريفهم لغيره أنت حقير، وأنا المولى الكريم المبجل، إذ يقول:

ليس في الغابات حرٌّ

¹ - جبران خليل جبران، المواقب، ص13.

² - المصدر نفسه، ص14.

لا ولا العبد الذميمة

إنما الأمجاد سخرت

وفق واقيع تَعُومُ

فإذا ما اللوز ألقى

زهرة فوق الهشيم

لم يقل هذا حقير

وأن المولى الكريم¹

ويستمر الشاعر في مقاطع أخرى مُعدداً مزايا الحياة الغابية، يقول:

ليس في الغابات لطيف

لينه لين الجبان

فغصون البان تعلوا

في جوار السنديان

وإذا الطاووس أعطى

حَلَّةً كالأرجوان²

إن هذه الغابة التي يجوبها "جبران" تخلو من اللطف اللين لين الجبان، فاللين والخشونة متجاوران ومتعايشان مثل شجر البان مع السنديان، ونو الحلل الجميلة والمنظر الرائع، لا يدري بما يتميز به، ولا يعرف أهو أحسن فيه أم هو فتنة لهم كالتاووس إذا ظهر بحلته التي تشبه الأرجوان ذي اللون الأحمر.

فالكل متجاور متعايش لا أحد يهرب أو يخاف من أحد، لا مباهاة، لا اعتلاء، ولا طغيان بين البشر إنَّها جنة الشاعر التي يرى فيها ما ليس في دنيا الناس.

ويواصل "جبران" بعداد ما تتميز به الغابات عن سرح الحياة الاجتماعية، يقول:

¹ - جبران خليل جبران، المواقب ، ص 15.

² - جبران خليل جبران، المواقب ، ص 16.

ليس في الغابات ظريفٌ

ظرفه ضعف الضئيل

فالضبا وهي عليل

ما بها من سقم العليل

إنّ بالأنهاار طعمًا

مثل طعم السلسبيل

وبها هول وعزمٌ

يجرف الصلد الثقيل¹

وكأنّ الناس في الغابات تبدل نظرتهم إلى الحياة والموت والكون، فيتخلون عن طباعهم البشرية ويلبسون أثوابًا أخرى من السلوك الاجتماعي، فالظريف القوي له مكانته والرقيق السليم له ساحته، ولكل طعم وحلاوة وجمال.

إنّ الظرافة في القوة والليونة في سلامة يعطي طعم سلسبيل الجنة ويظهر جلال الهول والعزم. وعليه فنفي المظاهر السلبية عن حياة الغاب، هو طريقة الشاعر في بناء الأفكار التي يستشهد على صحتها بصور بيانية تؤكدتها وتُقوي جحته في إقرارها.

وها هو يقول كذلك:

ليس في الغاب خليع

يُدّعي نُبلَ الغرام

فإذا الثيران خارت

لم تقل هذا الهيام

إنّ حُبّ الناس داء

بين لحمٍ وعظام

¹ - المصدر نفسه، ص18.

فإذا ولَّى الشباب
يختفي ذاك السقام¹

وهنا أجد "جبران" ينفي إدعاء الخلفاء (أصحاب الأخلاق السيئة) نبل حبّهم، وغرامهم في الغاب فإذا سمعت أصواتًا صاخبة مثل خوار الثيران فلا تحسب ذلك هيأماً وأشواقاً واعلم كذلك أنّ حبّ الناس مثل الداء يسري بين العظام واللحم يظل كذلك حتى إذا ولَّى الشباب وآل الناس إلى الشيخوخة واختفى ولم يبق له أثر، وانشغلوا بأسقام أخرى.

ثم يستمر "جبران" في وصف ما يراه في حياة الغاب، فيقول:

ليس في الغابات عدلٌ

لا ولا فيها الرقيب

فإذا الغزلان جنّت

إذ ترى وجه المغيب²

فالخلافة موجودة لكن لا وجود لعدل والرقيب لا للوم والعتاب، والرقيب الذين يكفرون صفوا الغرام والحبّ، فإذا رأيت الغزلان هامت وجنّت فاعلم أنّها نهاية الحياة.

ويقول "جبران" في وصف السعادة في حياة الدنيا:

وما السعادة في الدنيا سوى شبح

يرجى فإن صار جسمًا مله البشر

كالنهر يركض نحو السهل مكتدحًا

حتى إذا جاءه يُبْطئ ويعتكز³

ويخلص في نهاية المطاف إلى أنّ السعادة التي ينشدها الناس في الدنيا ما هي إلاّ شبح يتراءى لهم في الظلام فإذا ما تجسد لهم وعانقوه، ملّوه وتركوه، فهو كالنهر يركض نحو السهل سريعًا، حتى إذا بلغه أبطأ وتعكز صفوّه.

ويقول كذلك:

¹ - جبران خليل جبران، المواكب، ص 19.

² - المصدر نفسه، ص 21.

³ - جبران خليل جبران، المواكب، ص 23 - 24.

ليس في الغاب رجاء

لا ولا فيها المَلَل

كيف يربحوا الغاب جزءاً

وعلى الكل حصل

وبما السعي بغابٍ

أملأ وهو الأمل؟

إنما العيش رجاء

إحدى هاتيك العَلَل¹

فحياة الغاب كما تبدو "الجبران" تخلو من الرجاء لأن ما يصبوا إليه الإنسان متوفر ممّا يحقق الراحة والاطمئنان والسعادة، كما تخلو من الملل، ففي كل يوم هناك جديد وليس فيها ما يعكر صفو الحياة، فالعيش لا يصفوا إلا إذا خلا من الرجاء والتزلف لأهل الغنى والترف، وأصحاب المناصب، وإذا بقي الرجاء حاضراً في أي عيش أو حياة انتشرت فيه العَلَل، والأمراض المختلفة من طمع وحسد وجشع وتباغض. فالغاب هو جزء من هذه الدنيا ولكنه يمثل الكل في جميع الأشياء بكونه الأمل والطموح والفرح. ذلك أن الرجاء في عيش يُعدُّ واحداً من تلك العَلَل التي تُصيب الحياة في كل المجتمعات وتنقص بهاءها وجمالها.

وزيدة القول:

ولئن كانت المدونة الرومانطيقية العربية لا تخلو كما قلنا من المقابلة بين الغاب والمدينة، صراحةً وتلميحاً فإننا نعتقد جازمين أن قصيدة (المواكب) "جبران خليل جبران" ينبغي أن تعتبر نموذجاً في هذا المضمار، فهذه القصيدة المطوّلة بُنيت كلّها على ما يوجد من تناقض جوهري بين الحياة الاجتماعية بنقصها ومفاسدها وزيفها وحياة الغاب حيث القيم الأصلية لم تَدنس، وحيث الممارسة الوجودية تعانق الصفاء، وتقارب المطلق في كنف موسيقى النَّاي².

¹ - المصدر نفسه ، ص24.

² - فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص144 - 145.

وأجد "جبران" في (أغنية الليل)، يقول:

فتعالى يا ابنة الحقل نزور
 علنا نطفئ بدياك العصير
 كرمة العشاق
 حرقة الأشواق
 إسْمعي البلبل ما بين الحقول
 يسكب الألحان
 في فضاء نفخت فيه التلول
 نسمة الريحان¹

"فجبران" أراد أن يقول بأن هذا الليل كالبلبل يزهر الحقول بصوته العذب الطروب فهو يسكب الألحان في الفضاء، وفي التلال يأتي كنسيم الريحان. وفي قصيدة (المواكب) كذلك على ظاهرة (أن الحب لا يعرف الأغراض ولا الأهواء). حيث يتراءى لنا "جبران" شاعرًا مثاليًا يتمتع بنفسٍ مترفعة عن الدنيا والأغراض وهي تحب لذات الحب، يقول:

والحب في الناس أشكال وأكثرها
 كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر
 الحب إن قادت الأجسام موكبه
 إلى فراشه من اللذات ينتحز²

وهنا نلمح رفض "جبران" لما تواضع الناس عليه من قيم في الحب جعلته حقلًا مجديًا لا عطاء منه يرجى ولا دورًا في إسعاد حياة الناس، وكعادته اتخذ الطبيعة وسيلةً فنية، واعتمد التشبيه والتجسيم لإثارة إحساس المتلقي، فالحب كالعشب وهو ينتحر إن مسته اللذة.³

وهكذا يفصح "جبران" في كتابه (رمل وزبد) حيث يبث خواطره وآراءه وتأملاته فيقول:

على هذه الشيطان أسعى إلى الأبد
 بين الرمل مسعاهي وبين الزبد
 سوف يطغى المدّ على آثار قدمي فيمحو ما وجد

¹ - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، دار ثلاثينيات للنشر، الجزائر، د.ط، د.ت، ص 155.

² - جبران خليل جبران، المواكب، ص 19.

³ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 489-490.

أما البحر وأما الشاطئ فباقيان إلى الأبد

"فجبران" هنا يرمز بالرمل والزيد إلى أوراق النفوس ووهنات القلوب، وهو يوّد لو بدا الناس صرحاء لا يغمرون شيئاً وهم يفعلون غيره¹، والكتاب بعد هذا أدب رمزي في أدق ما ما يكون الأدب الرمزي.

ولعلّ أبرز ما لفت أنظار الشعراء من مظاهر الطبيعة حولهم: الليل والبحر هذا الجديد الذي لا يبلي وذلك الخصم العارم الذي لا ينفذ، أمّا الليل بظلامه ووحشيته وسكونه فيكاد كل واحد منهم يقول فيه شعراً ونظراً لأسلوب "جبران" الخالي من التشابه والاستعارات والمجاز، فقال بمنتهى السهولة والبساطة، إذ يقول:

سكن الليل وفي ثوب السكون
تختبئ الأحلام
وسعى البدر، وللبدر عيون
ترصد الأيام
فتعالى يا ابنة الحقل نزور
كرمة العشاق²

فهو يحب الليل، وما تثيره في نفسه مذكرات، وما يكشف عنه من أسرار، فهو لا يخاف من نجوم الليل لاطمئنانه إلاّ أنّها كتوم الليل لا تذيع سرّاً.

وكذلك لضباب الذي يغطي الكروم بغلالته الرقيقة حاجب الأسفار، فالليل أحب الرموز إلى "جبران" وإذا نظرنا إلى طبيعة اللفظة الجبرانية لوجدنا أنّها انبثقت من نفسه ومن تجربته، ومن تلك الصلة الحميمة التي تقوم بين الوجدان واللفظة، ولقد نسب الليل إلى الشعراء والعشاق والمنشدين بمخاطبه،³ فيقول:

يا ليلَ الشعراء والعشاق والمنشدين
يا ليلَ الأشباح والأرواح والأخيّة
يا ليلَ الشوق والصبابة والتذكار

¹ - المرجع نفسه، ص166.

² - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص155.

³ - إيليا الحاوي، الرومنسية في الشعر العربي و الغري، ص242.

إنّها اللفظة ذات الموكب والظلال والتموجات، وهي ذات تاريخ نفسي بالمعاناة على الألم والغربة والمطلق، والذهول، وهكذا فإنّ "جبران" تفتن إلى القيمة الداخلية للغة وتخيّر منها تلك التي تظلمها مثل أساطير لا حدّ لها من الانفعالات والمشاعر، أفاظ "الأرواح والأشباح والأخيلة" إنّها هي الأخرى ذات تاريخ نفسي عريق من صلتها بتجارب الأحوال الغامضة والموحشة والغريبة، الليل مليء بالأرواح ومثلها الأخيلة، ثم إنّ الشاعر يكرّر الألفاظ المتماثلة على إيقاع متباين: الشوق والصبابة والتذكار، وكل هذه الألفاظ لها تاريخ حافل في التدليل على الوجد والبراح وما إليهما، فكل هذه الألفاظ دليل على أنّ "جبران" كان يعانق اللفظة عبر الذهول¹.

و"جبران" بدوره يشق من مظاهر الطبيعة مظاهر مختلفة كلّها تدعي أنّ الوجود يكمن فيها؛ فالغاب يدعي أنّ العزم له، والصخر يدعي أنّه الرمز إلى يوم الحساب، والريح تفصل بين السديم والسماء، والنهر يروي ظمأ الأرض، والطود يقول إنّني خالد إلى الأبد والفكر يقول ليس في عالمٍ غيري من ملك.

والبحر هو الآخر يأتي في الدرجة الثانية من شعرهم في وصف الطبيعة، بحيث يرى "جبران" في البحر عزمًا وأي عزم، رمزًا يفوق كل رمز، والبحر فيه كثير من التأمل والتفكير والتطلع. "والبحر يعلق في نفسه على كل هذه الإدعاءات² مُعلنًا أنّه بؤرة الوجود، فيقول العزم لي والرمز لي، والريح لي، والنهر لي، والطود لي والكل لي فالبحر عند "جبران" هو صورةٌ لمبدأ الحياة، وكل القيم تتجمع فيه... فهو مصدر الحياة؛ منه تبدأ وإليه تعود³... وهذه النظرية عند "جبران" خيال شعري، وتأمّل بعيدٌ عن الحقائق العلمية لكنّه فيه مسحة فلسفية يعبر بها "جبران" عن رأيه الخاص في مصدر الحياة".

¹ - إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر العربي والغربي، ص244.

² - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص416.

³ - المرجع نفسه، ص157.

وهنا يجدر بي إعطاء لمحة حول الحبّ لدى "جبران" الذي يرى بأنّ الحب غنوة حلوة تغاديه وتراوحه في كل زمان ومكان، وتريه سحر الطبيعة وجمال السكينة، وعمق الأسرار... وقد أراد "جبران" أن يعبر عن مصاحبة الحب له في جميع أطوار حياته فلجأ إلى الرمز الزمني الذي يجعل من دودة اليوم رمزاً لكل دودات الحياة، فرمّز للطفولة بالفجر، ورمّز للشبيبة بالظهر، ورمّز للشيخوخة ومشيب الأحلام في عينيه بالغروب ورمّز للفناء بالليل، تلك الرموز وإن كانت تقليدية لكنّها أعطت لتعبيره نفساً شعرياً قريباً من لغة الأحلام والرؤى.¹

وعندما يقف القارئ إزاء شعر "جبران" لا يجد فيه إلاّ اللفظ السلس، والتراكيب اليسيرة، والمعاني المستخلصة من أفاظ وتراكيب لا غرابة فيها، ولا صنعة، ولا تكلف ففي قصيدة له بعنوان "ماذا تقول الساقية؟" أجده يتخيل أحد الأشخاص يمضي سائراً في ضفة أحد الأودية صباحاً فإذا به على غير المألوف والعادة يسمع الساقية تتكلم²، إذ يقول:

سِرْتُ في الوادي وقد جاءَ الصباح
مُعلنًا سرَّ وجودٍ لا يزولُ
فإذا ساقية بين البطاخ
تتغنّي وتنادي وتقولُ:

ما الحياة بالهناء

إنّما العيش نزوع ومرام

ما الممات بالغناء

إنّما الموت فنوط وسقام³

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 375.

² - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 123.

³ - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص 170.

فالساقية هنا تتغنى وتتادي، وتعلن أنّ الحياة ليست سوى طموحات وآمال يرومها الإنسان، وأنّ الموت ليس في توقف الحياة، وإنّما هو في الوقوع فريسة اليأس والإحباط، وهكذا أجد أنّ "جبران" يجعل من كلام الساقية ضرباً من التأمل الفلسفي في الحياة والوجود والعدم.

فهو يتحدث عن الخفايا والأسرار أكثر ممّا يتحدث عن الأشياء المعروفة التي تبدو للقارئ كأنّها تلوّح على السطح.

وجدير بالذكر أنّ أشير إلى أحد النقاد حين قال: "إذا كان "جبران" في (المواكب) قد وجد أمنه النفسي، ووحدته الروحية في أكناف الطبيعة، ورأى الغاب مثوى للحياة الناعمة بمسرات العدالة والمساواة وإذا كان في كثيرٍ من نثره قد ألح على هذه الفكرة، وقد هجا المدينة هجاءً مُراً لاذعاً، فإنّه في (البلاد المحبوبة) لا يبحث عن عالمه الذي أمضه الحنين إليه خارج ذاته لأنّه يجده أخيراً أمنية تشتغل بها الروح وينبض بها الوجدان وستظل كذلك بومضها ونبضها، وسيظل الكائن البشري متحرّقاً إلى مرفأ مجهول ليس من سبيل للوصول إليه"، "فجبران" في (البلاد المحبوبة) شعر بالغربة النفسية، وعاش في عذابٍ كبير يعانى من عذابات أشواقه للمجهول المحبوب عن خياله، وهو إحساس بالغربة، وانصراف عن الواقع المرير، وهو يحاول أنّ يجد في هذه القصيدة الطريق الأمثل ليصل إلى عالمه المنشود. هذا العالم سراب أم أمل؟ أمّامٌ يتهدى في القلوب أم غيوم طفت في شمس الغروب؟¹

فشعور "جبران" وتمرده على وجوده كانتا بذرتين حقيقتين أبنعتا في وجدانه وأثمرتا ورأيناه يبدع في قصيدته (المواكب) - كما أشرنا إليها في البداية - وقصيدته الرائعة (البلاد المحبوبة) وهي بدورها تقوم على الثنائية، إنّها نورٌ ونار، و(المواكب) أيضاً مبنية على الصراع بين حياة المدينة وحياة الغاب، بين الفتى والشيخ... ولاشك في أنّ هذا التناقض

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 338.

صورةً لفسية "جبران" المتصارعة، وإحساسه الباطني دوراً في إنتاجه مثل هاتين القصيدتين وغيرهما.

فالشعور بالغربة في بلاده المحجوبة، والتمرد على المجتمع المادي والحضارة المزيفة في (المواكب) مردّه إلى هذا الأثر النفسي الذي نشأ من إحساس "جبران" بثنائية نفسه وازدواج العالم الخارجي من حوله.¹ وها هو "جبران خليل جبران" يحدثنا في هذه القصيدة على لسان عاشق من مدينة ما، أصبحت الحياة فيها مُضجرةً، والفساد يستشري والآلام تحيط بالفرد، فيتمنى أن يعاودها إلا مدينة أخرى، ثم يصف لنا هذه المدينة الأخرى، فإذا هي ليست في إحدى الجهات ولا هي في البرّ ولا في الجوّ، وإذا هي مدينة مثالية يتخيلها العاشق داعياً حبيبته أن ترافقه إلى هذه المدينة (أثيوتوبيا) التي ليست في الواقع سوى فكرة يتخيلها شاعر حالم يتوق إلى التغيير²، يقول:

هو ذا الفجر فُومي نُنصَرِفُ
 عن ديارٍ ما لنا فيها صديق
 ما عسى يربُّو نباتٌ يَختلفُ
 زهره عن كلِّ وردٍ وشقيق
 وجديدُ القلبِ أنى يأتلفُ
 مع قلوبٍ كلُّ ما فيها عتيق
 هو ذا الصبحُ يُنادي فاسمعي
 وهلمِّي تقفِّي خطواته
 قد كفانا من مساءٍ يدعي
 أن نور الصُّبحِ من آياته³

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر ، ص 301.

² - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 124.

³ - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص 147.

فالذي يزعج "جبران" في عالم الناس أنهم يختلفون عنه ولا يطمحون إلى التغيير ويرضون بما هو كائن فالطموح والتمرد والثورة ليس من طباعهم، وإنما غدا التزييف مركزاً في هاتيك الطباع، ولذا فالإقامة بينهم لم تعد تلاءم هذا العاشق، وإنما هي هموم متواصلة، وبأس مخيم كأسراب من البوم، وماء الغدير ليس عذباً وإنما هو ماء سقيم والكروم ليست شهية والثمار وإنما هي مسمومة والحياة كلها معاناة تتطلب الصبر الجميل يقول:¹

وشرينا السُّقْمَ من ماء الغدير
وأكلنا السمَّ من فجِّ الكروم
ولبسنا الصَّبْرُ ثوباً فالتَّهَبُ
فَعَدَوْنَا نتردى في الظلام
وافترشناه وساداً فانقلب

عندما نمنا هشيماً وقتاد²

ونلاحظ هنا أن هذه القصيدة تتألف من صُور متلاحقة تمثل وحدةً نامية تقودنا إلى الغابة التي هي آخر القصيدة، عندما أوضح لنا في أوجها، وقمة بنائها الهرمي، طبيعة تلك المدينة التي يُنشدها والأرض التي يبغى يقول:³

يا بلاداً حُجِبَتْ منذ الأزل
كيف نرجوك ومن أي سبيل
أي قفر دونها، أي جبل
سورها العالي، ومن منا الدليل
أسرابٌ أنتِ، أم أنتِ الأمل
في نفوسٍ تتمنى المستحيل

¹ - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 124.

² - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص 148.

³ - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 125.

أمنامٌ يتهادى في القلوب
فإذا ما استيقظت ولَّى المنام
أم غيومٌ طفنَ في شمس الغروب
قبل أن يغرقنَ في بحرِ الظلام¹

فهذه البلاد التي يتحدث عنها الشاعر، هي بلاد أزيّة لا يعرف المرء طريقاً إليها ولا سبيلاً نحوها وهي ليست سراباً، وفي نفس الوقت ليست حقيقة، ولا مستحيلاً، وهي حلم إلا أنّ هذا الحلم سرعان ما يتبدّد أثره عند الاستيقاظ، وهي غيوم، غير أنّ هذه الغيوم حُبلى بالأسرار، فسرعان ما يطوبها بحر الظلمات فهذه المعاني لم نألفها في الشعر القديم ولا ألفناها في شعر النهضة الذي يمثله "شوقي"، أو "حافظ" أو "مطران"، أو "الزهاوي" أو "الرصافي"، أو "البزم"، أو "اليازجي"، أو "الشدياق"، ونتأمل نهاية القصيدة التي يتجلّى فيها المغزى أو الخلاصة مثلما تتجلّى النهاية في قصة قصيرة²، يقول:

يا بلاد الفكر يا مهّد الأولى
عبّدوا الحقّ وصلّوا للجمال
ما طلبناك بركبٍ أو على
متنٍ سفنٍ أو بخيلٍ ورجالٍ
لست في الجوّ، ولا تحت البحار
لست في السهّل، ولا الوعر الخرج
أنت في الأرواح أنوارٌ ونارٌ
أنت في صدري فؤادي يختلج³

¹ - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص148.

² - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص125.

³ - جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص149.

ففي الأبيات نجد أنّ "جبران" يُميط الستار عن رموزه، ويزيل الضباب عن مراميه ومقاصده، فإذا هي مدينة فكر يعشقها أولئك الذين عبدوا الحق وعبدوا الجمال ممثلاً في الحقائق الصافية الخالية من الزيف، وهي مدينة موقعها الحقيقي في الأرواح والصدور والقلوب، وهي مدينة أنوار ونور، لا مدينة شكوك، وظلمة وأسرار وآلام وإحباط.

هذه هي الروح الشعرية الجديدة كلّ الجدة، وهي من الرومانسية الحقّة لأنّها تعبر عن دخيلة الشاعر وأعماقه وخفايا نفسه وليس شعر مناسبة تخاطب الجمهور ليُلَهَبَ أيديهِ بالتصفيق، ومفردات الشاعر بسيطةً جدًّا ولا نعثر على لفظةٍ تحتاج إلى شرح باستثناء لفظة (قتاد)؛ والقصيدة متلاحمة الأجزاء، القسم الأول: يمتد معناه في الثاني، والثالث يقود إلى الأخير. والذروة تلقي الضوء على زوايا القصيدة الظليلة التي تحتاج إلى وضوح.

وتخيل الشاعر لهذه الحكمة القصيرة في القصيدة يُشبه تخيل الكاتب لحبكة قصته فالوادي الذي وصفه وأسراب البوم، والقضبان، والغدير المسموم، والكروم الفجة المسمومة والزّماد الذي يكفن الصابرين في هذه الحياة والوسادة التي تتقلب شوكةً حادًا كل أولئك صورٌ شعرية اخترعها خيال الشاعر، ولم يقتبس أيًا منها من البيان المكرور في الشعر قديمه أو جديده.¹

وفي نهاية هذا التحليل، وبالاعتماد على المختصر المفيد لا الطويل الممل، ولا الوجيز المخلّ أكون قد أكملت حديثي عن "البيئة الطبيعية في شعر جبران خليل جبران".

¹ - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 126.

إنّ الأدب المهجري، أدب حديث النشأة، ولد مع القرن العشرين، نشأ وترعرع، ونمى وازدهر حتى بلغ مكانةً متقدمة، وكون جمعيات أدبية، وهيئات فنية غايتها إيجاد رابطة بين أبناء العربية الوافدين إلى الأمريكيتين - الشمالية والجنوبية- ويرجع قيامها إلى هجرة أفواج كبيرة من أبناء البلاد العربية وبخاصة من سوريا ولبنان إلى العالم الجديد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وعليه يمكن القول بأنّ المدرسة المهجرية الشمالية، أو ما يمكن سُمها بالرابطة القلمية، والتي هي جمعية أدبية عربية + أمريكية أسسها جماعة من الأدباء العرب المهاجرين إلى أمريكا الشمالية.

فالرابطة القلمية هي ثمرة من ثمار الإرساليات التبشيرية التي وردت في لبنان، وسيطرت على وجوه التعليم والثقافة فيه، ثم كان لهذه الثمار اتصالها بالمدارس الغربية، وخاصةً مدينة بوسطن التي اتخذها المهجريون مقرًا لهم وهي من القديم مقرّ الإرساليات التبشيرية في الولايات المتحدة الأمريكية، فلما صدرت عن أدبها الجديد تلقفته أيدي رعاة الغزو الثقافي، وعملت على إذاعته، والدعوة إليه بوصفه لونًا جديدًا من ألوان الأدب الغربي المتسم بالعنصرية والجرأة والواقع أنّ هذا الأدب المهجري إنّما يمثل صرخة الغريب المهاجر المؤثر لقيم الغرب، وفنون أدبه، وليس فيه طابع الغربي المؤمن بوطنه وقيمه، كما اتسم كذلك بطابع القلق، والتمرد والتحرر من قواعد اللغة، ومن قيم المجتمع، والتقليد المغرق لآداب الأجنبية، والمتأثر بالحملة الإنجليزية القائمة على الكتابة والاستعارة والموسيقى، والخيال والرمزية. فعندما نظر في شعر المهجر نجد ربّان سفينة، مؤسس الرابطة المسماة (بالرابطة القلمية) - أحدثت تغييرًا في الكتابة الأدبية على صعيدي الشكل والمضمون، وبعض مؤسسيها حازوا شهرةً عالمية - إمام التوجه الرومانسي في شعره نثره ألا وهو "جبران خليل جبران".

ومن هنا أجد نفسي أمام هذه الأطروحة القائلة:

يا ترى من هو "جبران خليل بران"؟ وكيف يتسنى لي معرفة هذه الشخصية العملاقة؟ وفيم تكمن معالمه الأدبية؟ باعتباره كما سبق الذكر ربّان سفينة الشعر المهجري، وما هي الإنجازات التي حققها للمعرفة الإنسانية بصفة عامة؟
أولاً:

• مولده ونشأته:

هو "جبران بن خليل بن ميخائيل بن سعد"، من أحفاد "يوسف جبران الماروني البشعلاني اللبناني" نابغة الكّتاب المعاصرين في المهجر الأمريكي وأوسعهم خيالاً.¹

في بلدة تجاور الأرز، وتدفق برونق الاخضرار، وتلهمُ الخشوع، وتستمرُّ في نسج ملحمة الجمال والجلال، في "بشري"، في شمال لبنان² - ولد "جبران خليل جبران" في السادس من كانون الثاني سنة 1833م والده "خليل" المكلف جباية الرسوم على الماشية في جرود شمالي لبنان، أمّا أمه فهي "كاملة" ابنة "الخوري اسطفان رحمة"، كانت ذات ثقافة محدودة غير أنّها كانت تتحلّى بإرادة وهمّة قويتين ساعدتاها على تدبير شؤون المنزل³، كما يقال عنها بأنّها "شبيطة" حادة الذكاء، وقبل زواجها من "خليل" كانت أرملة "حنّا عبد السلام رحمة"، ومات عن وليد اسمه "بطرس"، ولمّا عادت إلى أبويها وسمعتها "خليل جبران" تغني المواليا وذات يوم أغرم بها وتزوجها فزرق منها "جبران" وأختان "سلطانة" و"مريانا".

¹ - كاظم سليمان، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م ج1، ص394.

² - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط3، دت، ج2، ص359.

³ - جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران (نصوص خارج المجموعة)، ج.ت أنطوان القوال، دار الجيل، ط1، 1994م، ص11.

كان لأم "جبران" تأثير بليغ في نشأته وتوجيهه في الحياة، قال عنها في رسالة موجهة إلى ممي في 28 كانون الثاني عام 1920م "كانت محبوبة في محيطها ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، ولا أعلى في درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهممتي، وأنا بعد في الثالثة أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين رابطة حبّ متبادل، وأنا كائنات مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفت في حياتي".¹

عاش في قريته حياة هادئة بين الوديان والجبال، وما أن بلغ الخامسة من عمره حتى أدخل في مدرسة "ديرمار اليشاع" القريب من "بشري"، فتلقى مبادئ القراءة والكتابة، وكان مواطنه الطبيب "سليم الضاهر" يساعده في تعلّمه، وفي تنمية موهبة الرسم التي ظهرت فيه² عند التقاءه في بيت جدّه برهبان إيطاليين يحملون رسوماً، ومن ذلك أحب التصوير كذلك، وقيل عنه أيضاً أنه لم يكن طالباً منضبطاً، بل كان متمرداً على النظام، وكانت هوايته المفضلة هي التلوين منذ سن السابعة³، إلى ذلك فقد كان "جبران" الصّغير يتمتع في انصرافه إلى الطبيعة الخلابة التي تميّز بها المنطقة، وظلّ جمالها منطبعاً في نفسه، وحبّها لا يفارقه، ففي إحدى رسائله إلى ابن عمّه "نخلة" يقول: "هل يأتي ربيع حيانا ثانية فنفرح مع الأشجار، ونبتسم مع الزهور ونركض وراء السواقي، ونترنم مع العصافير مثلما كنّا نفعل في بشري... هل نرجع ونجلس بقرب مارسركيس وعلى نهر النبات وبين صخور مارجرس... وأجمل ما في هذه الحياة يا نخلة هو أن أرواحنا تبقى مرفرفة فوق الأماكن التي تمتعنا فيها بشيء من اللذة...".⁴

¹ - جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، دار الجيل، بيروت، 2002م، د.ط، ص 06.

² - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 11.

³ - جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 06.

⁴ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 12.

عانى "جبران" من عقدتين في حياته هما: الفقر والرغبة في الغناء والتعلق الأوديبى بأمه¹، أمّا جوه المنزلي فقد جرّعه سمومًا، فعرف وجوه الشقاء من الفقر، إلى المذلة، إلى الظلم، إلى القيود، كل هذا أنمى فيه حسّ التمرد الفطري فإذا عقدة الدونية تحولها إلى تفوق، وهذه العقدة مصدرها الفقر، والأصل والجهل والمرض والموت، وولادة بئسة في بيت فقير جاور قصور المشايخ، فنشأ على حبّ الفقير والضعيف، وبغض الأثرياء فلطالما تحدث عن سمو الكوخ بطهره على القصر بجشع أصحابه، ولم يعرف اليأس إلا في أيامه الأخيرة، حين منعتة العلة من التمتع به، وواجه الموت مع أخته "سلطانة" وأخيه "بطرس" وأمه واستقوى على الموت، حين وجد الوجه الآخر للحياة، ذلك أنّ الأب كان متقاعسًا عن واجبه، لذلك كان الودّ للأُم، مصدر الحرية والجمال، إذا هي الأمة يقول "جبران" "وجه أُمي وجه أمتي" فقد كان واعيًا كل الوعي للبعد الإنساني وللقضايا الوطنية، وقد ظهر هذا منذ طفولته ولاسيما ميوله للتحرّر الشخصي.²

وكذلك في كل ما خطّته ريشته من رسوم وأشكال حتى ليقول في إحدى رسوماته وقد دعاها "فؤارة الألم": "وما الحياة كلّها إلا فؤارة من الألم"، وحين لاحظت صديقته إكثاره من رموز الموت والألم المجرّدين فأجاب لأنّ الموت والألم كانا نصيبي الأكبر من الحياة حتى اليوم، فبين الرابع من نيسان عام 1902م والثامن والعشرين من حزيران عام 1903م فقدت أختي الصغرى، ثم أخي الأكبر، ثم أُمي، وكلّهم أعزّ ما في الكون يا "مس هاسكل".³

وكل هذا ربّما أدى "بجبران" إلى إطالة التأمل، وكثرة التفكير وصبغ حياته بصبغة روحية لم يتخلص منها بعد ذلك، وعناوين كتبه ومقالاته وقصصه تتضج

¹ - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط3، د.ت، ص122.

² - فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، ص30.

³ - ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، دار صادر، بيروت، ط1، 2002م، ص74.

بالألم وتشير إلى ما ينطوي عليه داخله من جرح عميق "فالعواصف" و"الأرواح المتمرّدة"، و"صراخ القبور"، و"الأجنحة المتكسرة" و"المجنون"، و"حفار القبور" و"أيها الليل"... كلّها عناوين تخفي في طياتها أشلاء نفس مفعمة بالمأساة، ولكّنها استطاعت أن تنتصر على دواعي القنوط فترجمت حياتها إلى أعمال فنية خالدة هي صورة لتلك النفس لم تقترب منها الألوان المزيفة التي تشوه وجهها الحقيقي.¹

تعلم "جبران" في بيروت، وحفظ "مزامير داود" في عام 1894م²، وعليه يمكن القول بأنّ "جبران" نشأ في تراب الريف اللبناني، وسط عذاب الفلاحين الفقراء، في مرحلة فاصلة بين انهيار الإقطاع الاجتماعي وتصاعد البورجوازية، وتثبيت الملكيات الخاصة، وبين انتهاء مرحلة العذاب الطويل... فقد شهد "جبران" بنفسه وفي وعي طفولته الحميمة قسوة الطبيعة، وقسوة المسيطرين على المجتمع، فعرف عواطف الحياة بكل أبعادها من حياة الفلاحين في أعمالهم إلى حياتهم في مجتمعاتهم القروية الصغرى، ووعى منذ البداية مأساة الفقر الاجتماعي.³ وما عرف "جبران" الصبّا رتبة في العيش أو الحياة، فقد فطر على حبّ التجول في تلك المرباع- في لبنان- الرائعة، حيث الغابات والحقول، والوديان، والتلال المتناغمة الحاملة أبداً.⁴

ثانياً:

• حياته ورحلاته:

وتكتب الحياة في نفسه فصلاً موجعة، فهو لم ينعم طويلاً في حدائته إذ ضاقت أسباب الحياة أمام عائلته، لأنّ الأب اتهم باختلاس ما كان يجنيه من

¹ - صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص 85.

² - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، دار توفال للنشر، المغرب، ط1، 1990م، ص 180.

³ - خليل أحمد خليل، المعرفة الاجتماعية في أدب جبران خليل جبران، دار ابن خلدون، بيروت، 1981م، ص 09.

⁴ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 360.

الرسوم، وسجن، وحجزت أملاكه، فما كان من الأم إلا أن غادرت الوطن، ومعها أولادها الأربعة، قاصدةً الولايات المتحدة الأمريكية حيث نزلت في حيّ الصينيين في بوسطن¹، بالضبط في 25 حزيران سنة 1895م.² وهذا يحيلنا إلى التساؤل: لماذا كانت الهجرة إلى أمريكا بالذات؟

ذلك أنّ الإرساليات التبشيرية والمنشآت التي أنشأها الأمريكيون في سوريا ولبنان والمدارس التي بنوها لتعليم الصغار كانت من أهم العوامل التي وثقت الصلة بين أهل سوريا ولبنان وأمريكا، ممّا يقوي من هذا العامل روح التسامح التي كانت تتسم بها أمريكا وجو العصبية الدينية الذي كان يخيم على العثمانيين آنذاك كما لا ننسى انتشار الثقافة الأمريكية عن طريق هذه الإرساليات وهي من أهم الأسباب التي جعلت من أهل "جبران" النزوح عن وطنهم متجهين بذلك إلى أمريكا ينشدون الحرية ويتوقون إلى العمل والعدل والمساواة على غرار العامل الأهم في رغبتهم كذلك إلى الهجرة نحو أمريكا هو سهولة الهجرة إلى هذه البلاد النائية- لم تكن هناك قيود على الهجرة والمهاجرين إليها، وليس في قوانينها ما يُقيد حرية المهاجر في اختيار الطريق الذي يريده- بالإضافة إلى هذا كلّه توفر فرص الغنى والثراء كالمرافق الصناعية والزراعية والتجارة كانت آنذاك في حاجة شديدة إلى الأيدي العاملة.³

1/ في بوسطن:

¹ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص12.

² - جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص06.

³ - يُنظر، صابر عبد الدايم، أدب المهجر، ص25.

بعدما حملت "كاملة" أولادها الأربعة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، عملت "كاملة" وابنها "بطرس" في التجارة¹، ومارسا تجارة "الكشنة"² والابنتان "مريانا" و"سلطانة" في خدمة "جبران"، أما "جبران" فأدخل في مدرسة مجانية³ اسمها "Quincy" وكان "جبران" آنذاك في الثانية عشر من عمره، والتي يقول فيها "إيليا أبو ماضي" أن "جبران" وصل إليها في يونيو 1895م.⁴

وكان "جبران" يقضي معظم أوقاته في الرسم ومطالعة الروايات الإنجليزية التي كانت معلّمة اللغة الإنكليزية تختارها له⁵ منها رواية (منزل العم طوم).⁶ بعد ذلك اكتشف معلموه هوايته في الرسم، فأوصت به معلّمته إلى "فريد هولاندادي التري" الذي كان يشجع الفنانين الناشئين، ولمّا رأى مواهبه أعجب به فتنباهه فنياً وكان يجلسه إليه ليأخذ عنه رسوماً.⁷ وذات يوم قال "جبران" لأمه: "أو ما أخبرتك بما فعلته معلّمة التصوير؟ جاءت اليوم برجل، قالت إنّه مصوّر بيده يا أمّي، لا بالآلة، وأرته بعض رسومي، فقال لي: "أنت فرخ مصوّر" ودعاني لزيارته في الغد...".⁸

¹ أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص12.

² نبيل كرامة، جبران خليل جبران وأثاره في الأدب العربي (دراسة، نقد، تحليل نصوص)، منشورات دار الرابطة القلمية، ط1، د.ت، ص07.

³ أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص12.

⁴ محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص180.

⁵ أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص12.

⁶ محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص180.

⁷ نبيل كرامة، جبران خليل جبران وأثاره في الأدب العربي (دراسة، نقد، تحليل نصوص)، ص07.

⁸ أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص12.

وفي معرض "فريد هولاندادي التري" التقى "جبران" شاعرةً فنية اسمها "جوزفين بيودي" فأعجب بها وهناك خفق قلبه لأول مرة في هذه المرحلة وأصبح أيضًا يتقن فن التصوير، ومن ثم تولدت لديه رغبة أكمل تعليمه باللّغة العربية، فوفرت له أمه بمساعدة إخوته كل الإمكانيات لتحقيق ذلك.¹

2/العودة إلى لبنان:

في سنة 1898م أرسل "جبران" إلى لبنان ليدرس اللغتين العربية والفرنسية، فالتحق بمعهد "الحكمة" في بيروت، حيث تلقى دروسه على يد مشاهير الأساتذة يومذاك أمثال "الخوري يوسف حدّاد"، وأمضى في "الحكمة" مدّة ثلاث سنوات تبلورت من خلالها مواهبه في الرّسم والكتابة.² وقد روى "الخوري يوسف حدّاد" وكان أستاذ البيان في مدرسة "الحكمة" أنّ "جبران" جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حصله من معرفة باللّغة الإنكليزية، وإتقان لغة الرسم، فقال له "الخوري": "ألا تعلم أنّ السّلم يرقى درجةً درجةً"، فما كان من "جبران" إلاّ أن يرُدّ بقوله: "بلى، ولكن هل يجهد الأستاذ أنّ الطائر لا ينتظر السّلم في

طيرانه" فافشّر بدن "الخوري"، الذي شعر أنّه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.³ وقد قيل عنه أيضًا: "في صباه كان صورةً مصغرةً "جبران" وفي شبابه وكهولته تلازمه الكتابة ويرافقه حبّ العزلة ويستميله التفكير"، أمّا أهم ما اطلع عليه "جبران" في هذا المعهد هو "كليّة ودمنة"، "تهج البلاغة"، "الدرر" و"ديوان المتنبي" و"الكتاب المقدس".⁴

¹ - نبيل كرامة، جبران خليل جبران وآثاره في الأدب العربي (دراسة، نقد، تحليل نصوص)، ص 07.

² - يُنظر، أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 12- 13.

³ - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق حرمانا، د.ط، 2008م، ص 10.

⁴ - نبيل كرامة، جبران خليل جبران وآثاره في الأدب العربي (دراسة، نقد، تحليل نصوص)، ص 07.

وكان يتردد "جبران" في فصل الصيف على مسقط رأسه "بشري"، فيزور أقاربه ورفاقه، وفي "بشري" يومذاك تعرّف إلى فتاة من أهل الغنى أحبها، ولكن تقاليد المجتمع حالت دون زواجهما، فذاق الحبيبان كثيراً من الألم، وقسوة الحرمان، وظلم الأهل¹، فجعلها فيما بعد بطلته روايته "الأجنحة المتكسرة" وهي "سلمى كرامة"².

لم يستطع "جبران" إكمال دراسته بالعربية لأنّ الزمن قاس عليه حين ماتت أخته "سلطانة"، ومرض أمه وأخيه "بطرس".

3/ عودته إلى بوسطن:

في سنة 1901م عاد "جبران" إلى بوسطن، متثقلاً بالمعرفة وألم الخيبة بالحب، وكان هذا الألم فاتحة لسلسلة من الآلام، عاناها "جبران" وتمثلت كما سبق الذكر - بفقدان شقيقته "سلطانة"، ثم أخيه "بطرس" فأمه، ولكن هذه المآسي المتلاحقة لم تهدّ من عزمه، مع أنّه لم يبقَ له من معين إلاّ ابنة أخته "مريانا" فتابع محاولاته في الكتابة والرسم، وفي سنة 1904م أقام "جبران" أول معرض له في الرسم، وشاءت الأقدار أن يتعرف إلى سيدة أمريكية ثرية راقية هي "ماري هاسكل" كانت زارت المعرض، وأعجبت برسوم "جبران" وكان هذا اللقاء نقطة تحوّل في حياته، وبداية ترقّي سلم الشهرة.³

أول الغيث:

وفي السنة نفسها - أي 1904م - التقى "جبران" بشباب صحفي يصدر جريدة أسبوعية تحت اسم جريدة "المهاجر" لصاحبها "أمين الغريب" فعرض عليه رسوماته والبعض من خواتمه، فأعجب به كثيراً فبدأ "جبران" ينشر مقالاته في هذه

¹ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص13.

² - نبيل كرامة، جبران خليل جبران وأثاره في الأدب العربي (دراسة، نقد، تحليل نصوص)، ص23.

³ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص13.

الصحيفة، وفي 05 آذار من سنة 1904م ظهر أول مقال "جبران" بعنوان "رؤيا" ثم مقالات ثانية تحت عنوان "رسائل النار" عبّر فيها عن حسرته على قساوة البعد وغياب "جوزفين" عنه.¹ وهكذا استأثر أسلوبه الجديد بإعجاب القراء ما شجّع على إصدار "الموسيقى" و"عراس المروج" عام 1905م، و"الأرواح المتمردة" عام 1908م.²

4/ حلم باريس وبداية الشهرة الأدبية:

راود "جبران" حلم/ هاجس السفر إلى باريس، فساعدته "ماري هاسكل" بمنحه شهرية وقدم لها بالمقابل اللوحات التي أحببتها.³ بعدما قدّرت مواهب "جبران" ووثقت به، كما كان الحب قد جمع بينهما فأرسلته إلى باريس سنة 1908م ليدرس أصول الرسم في معاهدها العالية.⁴ وبمكث "جبران" في العاصمة الفرنسية مدة سنتين إلى أربعة أشهر، ممّا يزيد في نضج مواهبه وتتسع آفاق ثقافته، ويحضى خلال هذه الفترة⁵ وبالضبط في الحي اللاتيني بالتعرف على الأدباء والفنانين ولاسيما النحات الكبير "أوغست رودان" واجتهد طوال سنوات تخصصه، وزار مدن فرنسا، ومتاحف إيطاليا وبلجيكا وإنكلترا وروائعها الفنية الخالدة.⁶

وفي هذه المرحلة بدأت خواطر وأفاسيص "جبران" تؤثر على الأوساط الأدبية في لبنان، وسائر البلدان العربية، ثار فيها ضدّ التقليد، الجمود، الاستبعاد والجهل، كما أثار كذلك قضية الحب بين الرجل والمرأة التي اعتبرها أقوى من العقود

¹ - جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 23.

² - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 13.

³ - جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 23.

⁴ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 14.

⁵ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج 2، ص 360-361.

⁶ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 14.

الزوجية، وفي باريس تعرف كذلك على الأنسة "ميشلين" وهي من أصل فرنسي فتعلق بها، وقد أوحى عليه بقصة "رماد الأجيال والنار الخالدة".

وفي تاريخ السادس من كانون الثاني من سنة 1908م كتب "جبران" مقالته الخالدة "يوم مولدي" وذلك بمناسبة بلوغه سنة 25 سنة. سعد "جبران" نفسه كطالب في أكاديمية "جوليان باريس" فدرس فيها على الرسام "جان بول لورنس" القواعد الأصولية، هناك اشتد عليه المرض فبعث برسالة إلى "ماري هاسكل"

ولية نعمته يوصيها إذا أصيب بمكروه أن تأخذ لوحاته التي بحوزتها.¹ وحصل/ حاز في آخر إجازة "الفنون" في التصوير.²

5/ جبران في نيويورك:

عاد "جبران" إلى بوسطن، ومنها انتقل سنة 1912م إلى نيويورك، حيث استقرّ، بعد أن لمع نجمه في عالمي الأدب والرسم، وهناك في طابق علوي من بناية قديمة تخالها أحد أديرة لبنان التاريخية، في جو "صومعة" فسيحة هادئة- وهي تسمية أطلقها أصحابه لأنه لزمه، ولا يخرج منه إلا قليلاً لقضاء بعض الأشغال أو ردّ الزيارات- عزل "جبران" نفسه منصرفاً إلى الرسم والتأليف باللغتين العربية والإنكليزية، فتولت إصدارات مؤلفاته الإنكليزية.³ ونظرًا لما امتاز به من سعة في خياله، وعمق في تفكيره، قبلت رسومه في المعرض الدولي الرسمي بفرنسا، وأُختير "عضو شرف" في جمعية "المصورين" الإنكليزية⁴، حيث ساهم في مهرجان تكريم "خليل مطران" في القاهرة سنة 1913م بموضوع عن "الشعر البعلبكي" أرسله إلى صديقته "مي" لتتكفل بإلقائه وفي السنة ذاتها أصدر "الأجنحة المتكسرة" التي

¹ - جميل جبر، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 23- 24.

² - كامل سليمان، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، ص 394.

³ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 14.

⁴ - كامل سليمان، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، ص 394.

أستقبلت بحرارة في العالم العربي¹، ثم اتصل عن طريق صديقه "الريحاني" بالمناضلين اللبنانيين في سبيل تحرير لبنان من قبضة العثمانيين فساهم "جبران" في إنشاء الحلقات الذهبية (الرّابطة الأدبية السياسية). وهنا لا بُدَّ أن نُشير إلى أنّ حُبًّا بالمراسلة بدأ منذ سنة 1914م بين "جبران" والأديبة "ميّ زيادة" - التي أَلقت موضوع الشعر البعلبكي كما سبق الذكر - واستمرَّ حتى 1931م.

وبفضل جهده وإعطائه في الأدب والرّسم أصبح "جبران" قبلة أنظار أدباء² المهجر، فالتقوا حوله وأسس معهم "الرّابطة القلمية" عام 1920م.

6/ جبران والرّابطة القلمية:

تُنسب هذه المدرسة الأدبية إلى القلم الذي شرفه الله بالذكر في القرآن الكريم، والذي هو أداة الفكر ووسيلته إلى أذهان الناس، في كل، زمان ومكان والذي حمل لواء الحضارة والتقدم، والمدينة، وأذنّ في الناس بدعوة المعرفة والثقافة، والأدب منذ أقدم الأجيال.³ وكان "جبران خليل جبران" قد عمل إلى جانب "تسيب عريضة" في إصدار مجلة "الفنون" بعد عودة "أمين الغريب" إلى لبنان.⁴

وفي سنة 1912م أسس "عبد المسيح حدّاد" "جريدة السّائح" وجعلها نصف أسبوعية تحوي إلى جانب أخبارها السياسية والاجتماعية بعض الكتابيات الأدبية... كما كانت مجلة "الفنون" وقد وضع هذه المجلة تحت تصرف الأدباء وأصبحت مجلة "السّائح" ملجأً للأدباء...

¹ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص 181.

² - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 14.

³ - محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر، ط2، 2006م، ص 56- 57.

⁴ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص 181.

وفي مساء العشرين من أبريل عام 1920م اجتمع الأدباء في بيت الأستاذ "عبد المسيح حدّاد"، ودعوا معهم إلى الاجتماع رهطاً من الأدباء والأصدقاء وقرّروا أنّه لأبّد لهم من رابطة تضم قواهم، وتوحد مسعاهم في سبيل اللّغة العربي وآدابها ويكون غرضهم بث روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة¹ الخمول والتقليد، إلى حيث يصبح قوة فعّالة في حياة الأمة.

وفي الثامن والعشرين من أبريل 1920م² أصبحت الرّابطة القلمية حقيقة واقعة ففي اجتماع لهم عند "جبران"، قرّر المجتمعون إخراج الجمعية إلى حيّز الوجود وتسميتها بذلك الاسم - الرّابطة القلمية³ - فكان "جبران" عميدها، وسُمّي أعضاؤها عمالاً، وهم: "ميخائيل نعيمة"، و"وليم كاتسفليس"، و"تدرة حدّاد" "إيليا أبو ماضي"، و"وديع باحوظ"، "رشيد أيوب"، "إلياس عطا الله"، "عبد المسيح حدّاد"، "تسيب عريضة"⁴.

حيث رسم "جبران خليل جبران" للرّابطة شعاراً جميلاً.

شعارها:

يمثل هذا الشعار: دائرة في وسط كتاب مفتوح وعلى صفحتيه خُطت هذه العبارة: "لله كنوز تحت العرش مفاتيحها أسنة الشعراء".

ومن فوق الكتاب قد أطلّت شمس أشعتها نصف الدائرة الأعلى، وعند أسفل الكتاب سراج شطره الأيمن محبرة قد انغمس فيها قلم، فتحول حبرها إلى لسان من نور خارج من طرف السراج الأيسر، ومن تحت

¹ - محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص 57.

² - خليل برهومي، الأعلام من الأدباء والشعراء، إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والجمال، ص 32.

³ - محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص 57.

⁴ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 14 - 15.

الدائرة اسم الرابطة القلمية، مخطوط بأحرف مستقيمة الزوايا تشبه بعض

أنواع الخطوط الكوفية، ومن تحت اسم الرابطة باللغة الإنجليزية " **Connection Pen**"، فعنوانها وهو عنوان "جبران"¹.

كما هو معروف أن الرابطة القلمية من أهم الجمعيات الأدبية التي أسسها الكتاب والشعراء العرب في الأزمنة الحديثة- المهاجرين إلى أمريكا الشمالية- وعليه فقد كان أهم إنجاز لهذه الجمعية عرض نظرة موحدة عن الأدب والفن، وتزويد الأدب العربي بتجربة أدبية ناجحة، تتصف بالجدة والمغامرة، وتقوم على مبادئ طليعية، وهي إذ تتميز بالانتقائية واللاتسوية تعتبر فريدة في تاريخ الجمعيات الأدبية العربية الحديثة.

لقد كان أثر الرابطة القلمية في الشعر العربي عظيماً، فقد دخل إلى الشعر العربي نوعٌ جديد من الشعور وصدق الرؤيا، ومواقف جديدة نحو الحياة والإنسان ووضعته على الأرض، وكان من أثر الرابطة كذلك أن بلغ الشعر مرونةً أكبر في اللغة والوزن والإيقاع، وتغييراً واضحاً في اللهجة، وقد أظهر الوطن العربي اهتماماً كبيراً جداً بمنشورات الجمعية، كما نلمس في بعض الكتابات حول الموضوع، ومن الرواية الشفوية، وقد ظهرت تلك الكتابات في مجلة "السائح"، كما ظهرت في مجموعة من القصائد والقصص القصيرة والمقالات التي كتبها أعضاء الجمعية، ونشرت عام 1921م بعنوان "مجموعة الرابطة القلمية"².

كذلك يتحدث "جبران" عن غرض هذه الرابطة في إحدى رسائله إلى "ماري هاسكل" سنة 1914م "لم تكن الطرق القديمة تعبر عن أشيائي الجديدة وهكذا كنت أعمل دائماً على ما ينبغي أن يعبر عنها، ولم أقتصر على صياغة ألفاظ جديدة بل

¹ - محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص 58.

² - سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط1، 2002م، ص 167.

إنّ إيقاعاتي وموسيقاي كانت جديدة، وأشكال التأليف كلّها كانت جديدة، كان عليّ أن أجد أشكالاً جديدة لآراء جديدة".¹

وهذا يعني أنّ مدرسة "جبران" و"تعيمة" بصفة خاصة، وشعراء المهجر بصفة عامة كانت عالمًا ثائرًا وجديدًا يرفض ما حوله، ويطمح إلى بناء عالم جديد قائمًا على الحرية والاستقلال والتفرد، له خصوصياته وإضافاته. "ولا تزال هذه الجمعية/ المجموعة، بعد أكثر من نصف قرن من الزمان، تبدو إنجازًا مهمًا للإبداع الأدبي العربي الحديث، وقد انتشرت تلك المجموعة انتشارًا واسعًا وجلبت شهرةً ومنزلةً لكثير من الشعراء والكتّاب الذين نشرُوا فيها".²

ثالثًا:

• شخصيته وثقافته:

1- شخصيته:

يعدّ "جبران" أعظم شخصية أدبية في الأدب العربي خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، كان مزيجًا من الحكيم والثائر والشاعر... وليس من الصعب تقديم ما حققه "جبران" في الأدب، لكن من الصعب جدًا تصنيف ذلك لأنّه كتب روايات وقصصًا قصيرة، ومقالات، وقطعًا شاعرية، وقصائد منظومة وأبحاثًا وحكمًا، وأنواعًا أخرى من الأدب.³

¹ - محمد زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشعر، المرح، القصة، النقد الأدبي)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية د.ط، 2005م، ص120.

² - سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص168.

³ - سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث ، ص130-131.

ثم إنَّ شخصية "جبران" كانت تتحوُّ بطبيعتها نحو الموقف الرومانسي، فهي شخصية حاملة متدفقة العواطف و(تأثرية جداً).¹ وعليه فقد ظهرت بوادر تفرّد "جبران" في صباه، فما هو يستقر ضمن جدران أربعة بل يطيب له أن يغادر منزله إلى أحضان الطبيعة لينطلق مع مشاعره وخياله، وأحاسيسه وحرّيته، فهو يرفض أن يكون مجرد فردٍ في أسرة، أو مدرسة، أو قرية، ويصرّ على أن يُثبت له عالمه الخاص، وتتمو مواهبه وهو يؤكدُها بمحاولات رسم، وكتابة، ورغبة في القيادة، وتمردّ على الواقع الآسن في وسطه وبلاده ويعظمُ حبّه للبطاء والضعفاء، والمقهورين والمستعبدين المسغلين، وتزداد مع الزمن معارفه، ويكاد يتفرّد في ريادته وترحب تطلعاته، فيرفض الضعف... ويعمق شعوره، ويتسع مداره القومي ليبرز في الإطار العربي، وينأى عن كل ما هو عنصري، أو ما يمُت إلى العنصرية بصلة، ويمضي في تحقيق ما يريد، فتسطع إنسانيته، وتعظم ثقته في رؤاه، ونفاذ خواطره وتبين في ذاته وسيرته قدرة على الفعل الرسولي ويزيده الألم في نفسه وجسمه إيماناً بالحياة وسمو استلهاها... وإذا هو يعظم في الرؤية والقصد ويقدر بشكل أو بآخر على مخاطبة الناس كل الناس في مختلف أصقاع الشرق والغرب، ويحس إحساساً عميقاً بإنسانيته، وتثبت بذلك عظمة شخصيته اللبنانية العربية والإنسانية، وكأنى به رسول إنساني في نوع جديد.²

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن "جبران" أحبّ العالم، والمحبة عنده هي "ضحك بعيد في أعماق الروح" فهو يحب العالم بكل ما فيه من أخلص "الإنسان" وحنين "الشاعر" وحيوية "الفنان" وهي الصفات الثلاث التي يتكون منها ذلك "الأديب" الذي ندعوه "جبران خليل جبران".

¹ - المرجع نفسه، ص 136.

² - يُنظر، كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج 2، ص 362-363.

لقد كان "جبران" "إنساناً" يحب كل إنسان على وجه الأرض خارجاً عن حدود الدين والجنس والإقليم لأن كل إنسان هو أخوه في رابطة الإنسانية الكبرى، أو هو صورته في محيط الوجود الواحد الذي لا ينفصل: ثم "لأنّ المحبة هي ربّه ومعلمه على كل حال".¹

وهذا ما دعى "بربارة يونغ" إلى وصف كاتبنا- "جبران"- في كتابها "جبران خليل جبران، رجلٌ من لبنان" وصفاً نقتطف منه بعض الفقرات قالت: "إنّ "جبران" هو إحدى التفاتات القدرة الكلية التي لا يُحصَى لها عديد، وكانت تتجلّى في صوته وشخصه، وسلطةً يجب أن يُميز بينها وبين المفهوم البسيط للتفوق البشري... إنّه يحقق رغباتنا السامية، عقل غني وكبير وعظيم، وخلقٌ جبّار، ورجلٌ ساحر جدير بكل حبّ يتقدّمه من أجل كل حكمة... ماضٍ شخص في هذا العالم يعرفه معرفةً كافيةً".²

وما من شخص يستطيع الحكم عليه، لأنّ كل هذا العالم مبنيٌّ على أسس غير أسسه، ويضيع في جوّه، تستولي عليه مثالية مطلقة إلى درجة كبيرة وإنسانية شديدة الحركة، حتى لأشعر في حضوره كأنني في اتصال مع الألوهة".

وفي موضعٍ آخر قالت كذلك واصفةً مقدرته العقلية: "بعضهم يعرف "جبران" الذي يملك تألّق عقلٍ لا حدود لامتداد وعمقه، ويعرفون المفكر الذي قطع السنين حتى وصل إلى أعماق علم مُنظّم، والرجل الذي كان يستطيع أن يُملي على ثلاثة أمّاء سرّ في نفس الوقت، وفي لغاتٍ ثلاث، العربية والإنكليزية والفرنسية وفي مواضيع ثلاثة مختلفة، والشخصية التي كانت ينابيع الكائن عندما تتغذى دائماً بأرض وطنه الأصلي، لبنان الذي حلم من أجله دون انقطاع بمستقبل ماجد، وبنيّ في صمتٍ جميع قواعد تجديد بُنيانه، ويبحث عن حلّ مشكلاته".

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، ط3، مصر، ص343-344.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، دار الجيل، بيروت ط1، 1986 م، ص 225.

وقالت كذلك - "بربارة" - واصفةً الفن في رسوم "جبران": "إنّ الناحية المجهولة أكثر من سواها من قبل الشرق والغرب، هي ناحية الرسام الذي ترك لنا هبةً لا يمكن تصورها، ولا ثمن لها، ولم يستطع أن يحلم بها على هذا الكوكب سوى بضع مئاتٍ من الأرواح، والرسوم التي طُبعت في المؤلفات السبع التي ظهرت له بالإنجليزية، مهما كانت تعبيرية وفارضة لسلطانها، ليست غير إشارة إلى تركةٍ تعتبر إلى جانب، وليس فوق تركةٍ أكبر أساتذة الفن التصويري بفضل وجدانٍ ملهم بطريقة إلهية يستحيل علينا تعيينه، عندما كانت ريشته أو قلمه يزوران القماشة أو الورقة كانت تسري في هاتين قوة حيوية، رعاشة تبعث فيها الحياة، وتحولها من مادة ميتة إلى جوهر حي".¹

ففي حديثي عن شخصية "جبران" كما تبدوا للدارس من خلال تتبعنا لترجمة "جبران"، فتصل تلك الشخصية بما كانت تمتاز به من رهافة حسّ وعمق إحساس بالكيان، سواءً كان ذلك في علاقتها بذاتها أو في تعاملها مع الناس، أو في فهمها الكون، وتصورها إياه، وبطبيعة الحال فإنك لتجد نفسك أمام هذا الرجل حيال شخصية فنان بالمعنى الكامل للكلمة، حيث يُصبح الفن ممارسةً وجودية يومية لا عملية تعبيراً وصياغةً فحسب.² وهو ما يدفعني إلى الإشارة بأنّ من أوسع المراجع احتفاءً واحتفالاً "جبران" الكتاب الذي ألفه عنه صديقه ومعاصره "ميخائيل نعيمة" وعنوانه "جبران خليل جبران"، ويضاف إليه كذلك الكتاب الذي وضعته عنه صديقتة الأمريكية "ماري هاسكل" وكتاب "توفيق صائغ" "أضواء جديدة على جبران"، أمّا الكتب الأخرى التي تناولت أدبه نثرًا وشعرًا فكثيرة جدًا، وذلك لأنّ شخصية "جبران" شخصيةٌ مثيرة، فهو مثال على الثورة والتمرد ومثال على العبقرية التي لا تعرف الحدود فالبرغم مم إمكانياته البسيطة، وأسرته الفقيرة محدودة العدد

¹ - ينظر، حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 225-226.

² - فؤاد القرعوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص 54.

ونشأته البائسة وتعليمه الذي لم يبلغ فيه شأواً وبعيداً، إلا أنه استطاع أن يكون من أشهر الكُتّاب العرب في عصره في الغرب عامةً، والعالم الأمريكي خاصةً، وكتابه "النبي" الذي وضعه بالإنكليزية، طُبِعَ كثيرًا، وبيع منه حسب إحصائيات قديمة نحو مليون نسخة.¹ وهذا يدل على أن "جبران خليل جبران" نابغةً وفيلسوف وفي هذا يقول "ميخائيل نعيمة" في كتابه "الغريال": "ولمّا ظهر "جبران" أول كتاب باللّغة الإنكليزية عادوا يُغدقون على "جبران" الألقاب فهو نابغهم وهو فيلسوفهم، وهو حدّقة عينهم، ومّا همّئي إذا كان "جبران" خيالياً أو يسكن السحاب، أم يكتب بلغة رمزية، أم يتطرّف في مبادئه؟ بل ما همّئي إذا كان مقتدرًا في اللّغة الإنكليزية، اقتداره في العربية، وأمّا يقول عنه الأجنبي؟ "فجبران خليل جبران" في نظري هو ثورة قبل شيء... ثورة بحدّ ذاته".²

وزيدة القول أنّ "جبران خليل جبران" ليس ابن يومه بل هو مجموع عواطف وميول أمة قضت على نفسها، أو قضت عليها الأقدار أن تعيش أجيالاً تتنطق بلسانها، أمّا قلبها فصامت مُنكمش، وأنّ تسير قانعة ضائعة في طريق مفروشة بالشوك محجوبة عن عين الشمس، أمّا روحها فتحلم بسبيل نيّر على جانبيه ورود رياحين... أمّا في كتابات "جبران" فقد لمست بروحي أشواق لبنان.³ وفي منشورات "جبران" ومنظوماته سمعت أنباض لبنان، وسمعت خفقات قلبه.⁴ أجل إنّ روح "جبران" عواطفها لا تستكن، وظمأها لا يرتوي ونيران أشواقها لا تنطفئ لروح غريبة

¹ - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 122.

² - ميخائيل نعيمة، الغريال، نوفل، بيروت، ط 15، 1991م، ص 222.

³ - ميخائيل نعيمة، الغريال، ص 22.

⁴ - المرجع نفسه، ص 225.

لا تُقاس بذراع، ولا تُكأل بصاع، فإذا ما رأينا تناقضًا في نزعاتها فلأنّ فيها نزعات تقذف بها شرقًا وغربًا، وأخرى تقذف شمالًا وجنوبًا.¹

2- ثقافته:

أما في ثقافته فنجد أنفسنا أمام هذه الأطروحة القائلة:

يا ترى من هم الأدباء، أو المثقفون الغربيون الذين استوقفوا جبران؟ وما هي التيارات والألوان الأدبية والفكرية الغربية التي شدّت إليها هذا الشرقي المهاجر؟ وبعبارة أخرى ما هي الأصول الأجنبية في ثقافة هذا الرجل؟
إذا كان "جبران" الإنسان فكيف كان "جبران" المثقف؟

لا تتعدى حياة "جبران" المدرسية مدة سبع سنوات، حيث أمضى في معهد "الفنون" في باريس زمنًا قد يقلّ عن السنتين، وأجاد بذلك اللّغات العربية والإنجليزية والفرنسية، واطلعه على الأدب الفرنسي، واهتم بصورة خاصة بتياريه الرومانتيكي عبر آثار كلّ من "روسو"، و"لامرتين"، و"هوغو" وغيرهم² لذلك كانت اللّغة الإنجليزية الركيزة الأولى في ثقافة "جبران"، وقد تمكن بواسطتها من أن يتصل مباشرة بالثقافة الغربية عامّة، والإنكلوسكسونية منها على وجه الخصوص.³

حيث ألمّ بمعرفة نتاج بعض كبار النقاد الفرنسيين أمثال: "سانت بييف" و"تبين" وغيرهم، فقرأ في الأدب الإنكليزي "الشكسبير"، و"شيلي"، و"وليام بليك" وفي الأدب الأمريكي "إدغار آلان بو"، وتأثر بذلك بمدرسة "الثعالبي" لرائدها المفكر "أمرسون" وشغف في الأدب الألماني بكتاب الفيلسوف "نيتشه" "هكذا تكلم زرادشت" على غرار إكثاره من قراءة الإنجيل والتوراة والقرآن حيث جذبته شعر التصوف

¹ - المرجع نفسه، ص 227.

² - يُنظر، كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص363.

³ - يُنظر، فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص55.

الإسلامي العربي، وحكمة الإمام "علي بن أبي طالب" وسواه في الفكر العربي، وتعرّف كذلك على تيارات ثقافية هندية، واعتنق فكرة تناسخ الأرواح والتفاعل مع اتجاهات فكرية أخرى معاصرة، ولم ينقطع في مراحل تأليفه ورسمه عن التأمل الجاد، والبحث عن حلول لِمَا يعترضه من مسائل ومشاكل على غير صعيد، وفي أكثر من نطاق وإذا هو يرفد دائماً معارفه من مصادر ذاتية وغير ذاتية، وينمو فكره ويتطور ويتميز ويتضح أنه يتجاوز في عطائه الفكري الإطار الإقليمي إلى المجال العالمي أو الإنساني.¹ أمّا الوسطة الثانية المباشرة بين "جبران"، وبين هذه الثقافة الغربية- على غرار الوسطة الأولى (اللغة الإنجليزية) كما أشرت سابقاً- فتتمثل في إقامته معظم فترات حياته ببلاد الغرب، تارةً في المهجر الأمريكي حيث اختار أن يستقر، وتارةً أخرى في بعض عواصم أوروبا زائراً أو دارساً.²

لقد بدت لي الدراسات التي كتبت عن "جبران" وحتى الترجمة التي خصّه بها رفيقه "نعيمه" ضئيلة بالإشارة بصفة واضحة وصريحة إلى أصوله الثقافية الأجنبية "فنعيمة" مثلاً لا يذكر من هذه الأصول إلا ثلاثة أولها (رواية العم طوم).

وكان "جبران" مؤلماً بمطالعتها في صباه- كما سبق الذكر- وثانيها كتاب عن "ويليام بلايك" وكان قد هداه إياه أستاذه في الرسم "رودين" زمن إقامته بباريس، وقد كان لهذا الإنجليزي ما قبل الرومانطقي التأثير في "جبران" على حدّ تصوير "نعيمه" لذلك.³ أمّا ثالث الأصول الأجنبية في ثقافة "جبران"، ولعلّ أهمها كتاب "تيتشه"- "هكذا تكلم زرادشت"- وقد اكتشفه "جبران" عام 1912م-⁴ بعد عودته

¹- يُنظر، كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص363.

²- يُنظر، فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص55.

³- ميخائيل نعيمه، جبران خليل جبران، ص53.

⁴- يُنظر، فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص55-56.

من إقامته الثانية بباريس على نحو ما أشرت إلى ذلك سابقاً- ولقد أورد "تعيمة" في هذا الصدد فقرات مطولة في ترجمته "جبران" فصور انبهاره بهذا الكتاب شكلاً ومضموناً يقول: "ما عرف "جبران" "نيتشه" حتى كاد ينسى كل من عرفهم من كبار الكتاب والشعراء، وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلي به، كان يلدُّ له في البدء أن يحدث غيره عنه، وأن يهدي أصحابه ومعارفه إليه".¹

إن هذه هي الأصول التي أشار إليها "تعيمة" في سياق حديثه عن ثقافة "جبران" ولكن اعتقادي بأن شخصيته في حساسية "جبران" توفر لها الإمام بلغة أجنبية أقامت ببلاد الغرب مدةً طويلةً من الزمن- كما ذكرت آنفاً- لابدّ من أن تكون قد نهلت من ينابيع فكرية وفنية أخرى، هذا الاعتقاد جعلنا ننقبُ عن الأصول الأجنبية في ثقافة "جبران"، فيما كتبه هو نفسه من مقالات، وإذا بنا نجد إشارات صريحة إلى كُتّاب غربيين من أمثال "شكسبير"، و"غوته"، و"ملتون" و"هوميروس"، و"شيلي".²

وهذه الإشارات نعتبرها إلى جانب كبير من الأهمية من الوجهة المقارنة لأنها تُضيف عناوين أخرى إلى قائمة الأصول الأجنبية في ثقافة "جبران" وبالتالي تساعدنا على المزيد من فهم أدبه وفكره وعلى تدقيق تقويمها وعلى هذا النحو نتبين لنا الواجهة الأولى للرصيد المعرفي عند "جبران"، وهو كما رأيت رصيّد متأثر بالثقافة الغربية عامةً، وبالثقافة الإنجليزية خاصةً ومتأرجح بين تياراتها الكلاسيكية والرومنطيقية.

ولئن بدأت في حديثي عن المؤثرات الأجنبية في ثقافة هذا الرجل فلأنّ انفتاح "جبران" على الثقافة الأجنبية كان أسبق تاريخاً من أخذه بأسباب الثقافة العربية "جبران" لم يتعلم لغة الضاد إلاّ بدايةً من سنة 1896م إذ قرّر العودة إلى لبنان

¹- ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، ص142.

²- فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص56-57.

آنذاك ليدرّس العربية، وإنّ أحسّ "جبران" بالضجر والتبرّم من قواعد اللّغة العربية وأصولها فإنّه أبدى ولعًا جوهريًا بجوهرها، وهو يعني بجوهرها جانبًا من جمهرة النصوص الأدبية التي كتبت بهذه اللّغة، والتي يبدو أنّه تأثر بها أيّما تأثر، فنحن نجده في بعض مقالاته يُبدي إعجابًا "بالممتبي" و"ابن الفارض" و"المعري"، و"ابن سينا"، و"الغزالي" وسبب إعجابه بهؤلاء الأعلام ما لمسّه في أدبهم من غوصٍ في أعماق النفس الإنسانية، ومن إرادة استكشاف جنباتها وتقويم منزلتها بين الموجودات.¹

وإضافةً إلى المؤثرات الأجنبية، تتضح كذلك المؤثرات المسيحية العميقة في "جبران" في انشغاله بثنائيات الحياة، فهو يؤكد الثنائية المسيحية على الأساس بين الجسد والروح وبخاصة في قصيدته (المواكب) وقد ولد ذلك ثنائيات أخرى مثل: الخير والشر، الحب والكراهة، الحياة والموت.²

يقول "جبران" في (المواكب):³

والشرُّ في النَّاسِ لا يَفْنَى وإنْ قُبِرُوا	والخيرُ في النَّاسِ مصنوعٌ إذا جُبِرُوا
وأكثرُ النَّاسِ آلاتٌ تحركها	وأصابعُ الدَّهرِ يومًا ثم تنكسرُ
فلا تقولنَّ هذا عالمٌ علّمُ	ولا تقولنَّ ذلكَ السيّدُ الوَقَرُ
فأفضلُ النَّاسِ قطعانٌ يسيرُ بها	صوتُ الرعاةِ ومنْ لم يمشِ يندثرُ
وما الحياةُ سوى نومٌ تُراودُهُ	أحلامٌ من بُمرادِ النفسِ يَأتمِرُ

لقد كان "جبران" شاعر يرسم بدم القلب، ويكتب بعصير الروح، فيغني بأفراح الإنسانية، ويبكي بأوجاعها، وكان (فنانًا) يُعبّر بالخطوط عن نوازع النفس البشرية ويصوّر آلام الإنسانية وآمالها، فقد سحّر كل مواهبه العالية لقيادة البشرية إلى

¹ - المرجع نفسه، ص 57.

² - سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 137.

³ - وضاح فخري طالب، جبران خليل جبران بإيجاز، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 2002م، ص 73.

الجمال والخير والحق وإلى الحب والسعادة والحرية، "فجبران" هو أول أديب عربي في العصر الحديث، جهر بإيمانه المطلق بوحدانية الوجود فهو دائماً يرى صورته في كل الصور، ويسمع صوته في كل الأصوات.¹

وهكذا يتضح لنا من كل ما سبق أنّ ثقافة "جبران" امتازت بالتنوع، فهي إلى جانب ذلك أخذت بأسباب الثقافة العربية الإسلامية، وبعض ألوان الثقافة الغربية، فكانت في تأثرها بثقافة الغرب جماعاً بين (تيارات شتّى) فيها، إلا أنّ القاسم المشترك بين مكونات ثقافة "جبران"، إنّما هو النشاط الفكري - أيّاً كانت جنسيته - والذي يُعنى باستجلاء حقيقة النفس البشرية...²

فثقافة "جبران" تبدو لي بعد هذا متناغمةً إلى حدّ بعيد مع خصائص شخصيته الإشكالية التي سبق وأنّ أشرت إليها، وطبيعي أن يكون لهذه الشخصية ولما أضيف إليها من زاد معرفي تأثير مباشر فيها أخرج "جبران" إلى الناس من فكرٍ وأدب وفن على امتداد العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن.

لكنّ الأهم من هذا أنّي في ضوء النتائج التي أفضي بي إليها تحليل شخصية هذا الرجل وخاصةً تفكيك عناصر بنيته الثقافية - قد اهتديت منهجياً - إلى ما يكفي من المبررات والحجج لاعتبار "جبران" علماً من أبرز أعلام الأدب العربي الحديث بأنّ معنى الكلمة.

رابعاً:

• أدبه:

يا ترى بماذا كان يتميز أدب "جبران خليل جبران" عن غيره من الكتابات الأدبية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنّه أدب رفيع؟ وأنا أقصد في هذا الصدد أدب "جبران خليل جبران":

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 344.

² - يُنظر، فؤاد القرقوزي، أهم المظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، ص 58.

أعرف تمامًا كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساتي علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى وفي يقيني أن هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان يُنتج الأدب ويتذوقه، أو بعبارةٍ أخرى، ما بقي الإنسان متحفظاً بجوهره الأصيل.

"ومما شك فيه، إن أعمال **"جبران خليل جبران"**، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه، وذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من خمسة وسبعين عاماً على وفاة مبدعها ومازالت تتصدر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى".¹

"كما أن أعمال **"جبران"** لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم".

وعليه فقد بدأ **"جبران"** حياته الأدبية والفنية، والفكرية قاصاً روائياً تراوحت كتاباته بين الغنائية الذاتية وبين الواقعية القريبة من الغنائية الذاتية.

يتناول فيها أسرار المجتمع، ومشكلاته أو مشاكل حياته الخاصة، ومناسباتها ناقداً فاحصاً كما تنطق بهذا كتبه الأولى: **"الأرواح المتمردة"**، **"عراس المروج"** **"الأجنحة المتكسرة"**، إذا نحن لم نغفل ما في **"العواصف"** و**"دمعة وابتسامة"** من قصصه أيضاً، ولكنّه عندما ازداد أوار انطوائيته المضطربة القلقة المتأملّة جنح إلى الحوار والقصص الرمزيين متخذاً الأشخاص والموضوعات والحركة الحوارية

¹ - "جبران خليل جبران"، الأجنحة المتكسرة مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، بقلم نزار بريك هنيدي، ص 06-07.

والقصصية رموزًا لأفكار ومشاعره، وكلها من صميم معاناته للوجود ومشكلاته وجانبه الفلسفي، الديني أو الاجتماعي الأخلاقي.¹

ومن هنا كانت حياة "جبران" الأدبية مرحلتان: مرحلة ما بين (1905 و1918م) وهي المرحلة التي كتب فيها باللغة العربية دون سواها، وكان له فيها خمسة كتب هي: "الموسيقي" (1905م)، و"عرائس المروج" (1906م) و"الأرواح المتمردة" (1908م)، و"الأجنحة المتكسرة" (1912م)، ودمعة وابتسامة (1914)، أما الكتب العربية الثلاثة التي ظهرت "جبران" في المرحلة الثانية فهي: "المواكب" (1919م) ومجموعتان من المقالات التي كان ينشرها في الصحف، الأولى منها ظهرت بعنوان "العواصف" عام 1920م عام و الثانية بعنوان "البدائع والطرائف" عام 1923م.

وأما المرحلة الثانية، أي مرحلة ما بين (1918 و1931م) فكانت في معظمها للكتابة باللغة الإنجليزية وقد وضع فيها "جبران خليل جبران" ثمانية كتب نُشر منها ستة في حياته وهي: "المجنون" (1918م) و"السابق" (1920م) و"النبي" (1923م)، و"رمل زيد" (1926م)، و"يسوع ابن الإنسان" (1928م) و"آلهة الأرض" (1931م)، أما الكتابان "التائه" (1932م)، و"حديقة النبي" (1933م) فقد نُشرا بعد وفاة "جبران"، وكان الأول منها تلمًا جاهزًا للطبع، وأما الثاني أي "حديقة النبي" فكان "جبران" قد وضع منه بعض صفحات، فتولت "بربارة يونغ" جمعه من أوراق "جبران"، وأضافت إليه الكثير من أقوالها وبعض ما ورد "جبران" في كتبه العربية.²

ومن المؤكد أنّ بنية الأدب الجبراني، تتألف من مزيج من العناصر الرومانسية والواقعية، والصوفية والثورية والحداثيّة التي استطاع "جبران" أن يؤالف

¹ - محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص 351.

² - حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 226.

بينها في توليفة سحرية لا تتأتى إلا لمُبدع كبير حقًا، فأدبه رومانسي وواقعي، وصوفي وثوري وحدائي في الوقت نفسه، وإذا كنا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرضٍ دراسي بحث، نهدف منه إلى التدليل على وجودها، أمّا كيف تتجدد هذه الخيوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال "جبران خليل جبران" فرادتها وخصوصيتها.¹

أ/ رومانسيته:

وهي رومانسية وليدة عدم قدرته على التكيف مع المجتمع، لأنّ ما فيه من مقاييس لا يُرضي طموحه إلى المثالية، فتمردّ على حياة الآلة، ودعّى إلى حياة الغاب والطبيعة²، وهي تتجلى أكثر في تمجيده للإنسان الذي لا يراه محور الكون ولبّ الوجود فحسب، بل إنّه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ أنّ الإنسان روح الألوهية على الأرض على حدّ تعبيره في نصّه (صوت الشاعر) وهو يقول في (نشيد الإنسان): "أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا وسأكون إلى آخر الدهر، ليس لكياني انقضاء". ومن مظاهر رومانسيته- كما سبق الذكر- الاحتفاء بالطبيعة، وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم، ولا ظلم³، يقول:

¹ - يُنظر، بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 20- 21.

² - فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، ص 59.

³ - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 22- 23.

ليس في الغابات حزنٌ لا ولا فيها الهُـموم
 فإذا هبَّ نسيمٌ لم تجئ معه السُّموم
 ليس في الغابات حرٌّ لا ولا العبد الذميم¹

كذلك تغنيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، وولَّعهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت... ويظهر هذا بوضوح في مقطوعته "أيها الليل"، "يا ليل العشاق والشعراء المنشدين يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة...". سأنتقل إليها في الفصل الثاني دراسةً وصفية تحليلية.

فأدب "جبران خليل جبران" خليطٌ من تفاعل روحي، وفكري، استمدته من "وليم بليك" و"نيتشه" وانبثق عن ذلك الخليط العجيب بعد انصهاره في بوتقة ذلك العالم الحديث ما كتبه في العربية والإنجليزية فقد استمد شاعرنا من "وليم بليك" إنسانيته التي تؤكد الإخاء الروحاني والمساواة، لذلك تجده يتمرد على الظلم والتمييز بين الناس، وضدّه ظلم النظام، وضدّ الملوك الطغاة، وضدّ الكنيسة ورجال الدين، ويتعصب للإنسان العادي، كالرعاة والفلاحين وهم أبطال قصصه الإيجابيين، وعلى الرغم من اتهام "جبران خليل جبران" بالرومانسية بالمعنى اللاواقعي، فإنّه كان أكثر واقعيةً من معاصريه، وفي رأي "جبران" أنّ رجل الأحلام هو في الحقيقة الرجل العملي.²

ب/ واقعيته:

وتبدو واقعية "جبران" واضحةً في قراءته المتعمقة لأحوال الواقع، وما يعجُّ بها من مأسٍ ومظالم وآلام ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباتهِ، مشخصاً العلة في كل حالةٍ وادعيًا إلى مجابهتها، ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارةً بالإنسان، وهذا ما نجده ظاهرًا في قصصه "مرتا البانّية"

¹ - جبران خليل جبران، المواقب، ص4.

² - فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، ص59-60.

ويوحنا المجنون، وردة الهاني" هذه الأخيرة التي يمكن اعتبارها "المعادل الأدنى لما كان يجري- ولا يزال- في الواقع من قهر للمرأة...". وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص "جبران" الأخرى ك: "صراخ القبور"، و"مضجع العروس"، و"خليل الكافر"، و"الأجنحة المتكسرة" وغيرها وهنا تتضح واقعيته في تفاعله كذلك مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الراحون تحت نير الاستعمار التركي فهو ما فتئ يحرضهم على الثورة على الاحتلال... والاعتماد على الذات في مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية يقول: "أمّا الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انصبّت كالجبار، وثارَت كالعاصفة متغلبةً على كل ما يقف في سبيلها...".¹

وكان "جبران" يواكب جميع الأحداث التي تمرّ بأمته²، فعندما اعتقل الأتراك عددًا من الثوار عام 1911م كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك وحين حلت المجاعة عام 1916م كتب نص (مات أهلي) وكذلك نص (في ظلام الليل)، كما كتب نصوصًا متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحرّره، كما في نص (الأضراس المسوسة) ونص (المخدرات والمباضع).

ج/ ثوريتة:

أمّا فيما يخص ثوريتة فهي السمة الأكثر نضاعةً من سمات الأدب الجبراني، "فجبران" ثائرٌ متمرد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية، فالحرية وحدها هي التي تحقق إنسانية الإنسان.³

¹ - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران، ص 26 .

² - يُنظر، بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 24- 25.

³ - المرجع نفسه ، ص 29.

وهي ثورة صادرة عن محبة كون "جبران" في عهد كان الشرق فيه ينتقل من طور الرجعية والعبودية والنتيّد بكل قيد إلى طور الانفلات والتحرّر والاستقلال كما أوضحنا ذلك فيما سبق، ثم إنّه اتصل بمدينة الغرب، وانطلاقية الشعوب الأوروبية والأمريكية، ورأى أنّ هذه الانطلاقية نفسها اسعباداً للإنسان في قواه الجسدية والروحية، على إثر ذلك نظر "جبران" إلى الشرق فوجده يتململ ونظر إلى لبنان فوجده يتحرك في قيود السياسة والاجتماعية والخرافات والتقاليد البالية، ونظر إلى العالم فوجده غير العالم الذي يتخيله، ووجده راسفاً في قيود الشرائع والأحكام والمادية، فاضطربت نفسه، واختلجت وثارَت في عنفٍ على أوضاع الناس أجمعين، وعلى أوضاع الشرق خاصةً، ولم تكن تلك الثورة لمجرد الثورة، ولكنها كانت صادرة عن محبة عميقة للناس عامةً¹، وللشرفيين خاصةً، ولاسيما "لبنان" منهم، لقد أراد- "جبران"- وضعاً أفضل، وعالمًا أسمى وقد بلغت به المثالية هذه إلى حدٍّ بعيد حتى وصلت الواقع باللواقع.²

"فجبران" لم يكن مُصلح اجتماعي، بل كان ثورياً حقيقياً، ومتمرداً أصيلاً لذلك امتدت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحدّ عن حرية الإنسان مهما بلغ من قدوسية أو رسوخ... وتتجلى ثورته أكثر في مواقفه السياسية ومعالجة العُلل التي تعاني منها الأمة وغيرها.³

د/ فلسفته (الفلسفة الجبرانية):

أمّا في حديثي عن الفلسفة الجبرانية، فقد تطور "جبران خليل جبران" في تفكيره تطوراً شديداً، ولم تتبلور فكرته إلا بعد مخاضٍ طويل، فقد انطلق من لبنان يحمل ثقافة غير واسعة، وعقيدةً مسيحية انتقلت إليه من نويه، ومن بيئته فهو لم

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 234.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 234.

³ - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 30-31.

يتعمق فيها درسًا وتحليلاً، وكان شأنه في ذلك شأن عامة الشعب من الشرقيين فكان من ذلك كله أن نزع المهجريون الشماليون منزعًا فلسفيًا تداولوه في رابطتهم القلمية، وغير القلمية وراحوا يعالجون حقيقة الحياة، وعالم الروح وصدّعتهم بذلك آراء "نيتشه" ورومنطيقية "وليم بلايك" وتخيلات "رينان" وخصوصًا روحانية التيوصوفية ونظرياتها الحلولية والكونية فانجرف الكثيرون من تيارات اختاروا منها ما شاءوا، وبرز منهم من برز من أمثال "جبران" و"مikhail نعيمة"، وكان "جبران" بذلك رأس المدرسة الفلسفية المهجرية.¹ وهي فلسفة خاصة استقاها من مصادر متعددة، ومن أعماق نفسه، من أهم مقوماتها مبادئ التقمص، وحدة الوجود، والقوة البناءة للمحبة، وكان "جبران" يعتبر أنه صاحب رسالة عبّر عنها في شتى مؤلفاته، ولاسيما الإنجليزية منها (فرسالة

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 237.

النبي) باختصار هي إيمان عميق بالمحبة الشاملة وقوتها في شفاء الإنسانية من أمراضها، واعتقادٍ راسخ بمبدأ وحدة الوجود.¹

وهذا ما نلاحظه في كذلك "عرائس المروج" و"دمعة وابتسامة" كما يقول في كتابه أيضاً "رمل وزيد": "تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً".²

وعليه يمكن القول: فإذا كانت غاية الصوفي أن يترفع عند رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى: وهي الاقتراب من جواز الذات الإلهية فإن "جبران" يقول في "المواكب":

فإن ترفعت عن رغدٍ وعن كدرٍ جاورت ظلّ الذي حارت به الفكر³

كذلك يقول في موضع آخر "ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام". وبقياً فإن العبارة تبدو وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.⁴

وهنا يمكنني الإشارة إلى أنّ "جبران" قد وجد في التيوصوفية - ظهرت في القرن الخامس عشر - غذاءً لنزعتة الصوفية، ودعمًا لرسالته الإصلاحية ومنطلقاً لعمله الاجتماعي كما وجد تفسيراً للهاجس الإنجيلي الذي كان يملأ أجواءه الروحية، فراح يفهم بعض أقوال السيد المسيح وتعاليمه على الطريقة التيوصوفية فيجد عنده الرجعة، والإنسان المتأله، والمثال الأعلى للكمال الإنساني... ويرى بأنه دُعي تيوصوفياً، إلى صوفية حاول أن يحققها في ذاته وذلك لكونه وجد أن مولده جرى في الوقت نفسه الذي ولد فيه المسيح - في

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 227.

² - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المنكسرة، مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 28،

³ - جبران خليل جبران، المواكب، ص 05.

⁴ - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المنكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 28.

سادس من كانون الثاني- فراح يدعو الناس إلى اعتناق مذهب المحبة والتعاون فوق الأديان، والجري في طريق الروحية التي اختطها المسيح، واتخاذ المسيح مثالاً أسمى لكل كمال.

ولاشك في أنّ "جبران" سلك في فلسفته طريق النمو التطوري (يعني الأفكار الجبرانية قد انصبت في الحلوية والتي في نظره حلول الله في العالم حلولاً جوهرياً، هي الله في الكل والكل في الله...).

وهكذا أجد "جبران" يختلف عن المتصوفين الذين يعتمدون التقشّف للوصول إلى الله، بينما "جبران" يتتكر لهذه الطريقة فهو يرى في الجسد رفيقاً جوهرياً للنفس، وهيكلها لها يحلّ فيه الله، كما يرى في اليقظة المعنوية والروحية طريقاً إلى إدراك الله.¹

وعلى أية حال فمن الصعب جداً حصر الفكر الجبراني، أو أن تثبت شتى آراءه بطريقة واضحة ودقيقة ذلك أنّه كثير ما يُدوّن آراءه بطريقة تخيلية ورمزية.² هذه الأخيرة التي يقرّر الدارسون على أنّ الرمزية العربية بمفهومها المعاصر مدينة ببدايتها "جبران خليل جبران".

هـ/ رمزيته:

الشاعر والمفكر العربي المهاجر "جبران خليل جبران" كما يرى "مارون عبود": "أنّ "جبران" هو مؤسس مدرستين في لغة الضاد: الرومانتيكية والرمزية". أمّا "إلياس أبو شبكة" فيقرّر أنّه من خلال أدب "جبران" و"تعيمة" و"أبي ماضي" قد نشأت رمزية مستقيمة لن تفقد فيها اللّغة حياءها فتلهو بالمساحيق كالمرآة الفارغة" هذا على حين يرى "عدنان الذهبي" أنّ "جبران" كان في الحقيقة أول

¹- يُنظر، حتّى الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص238- 239.

²- المرجع نفسه، ص240.

مُبشر بفكرة التمدُّب من جهة، كما أنه كان بروحانية كتاباته وإيحاءات رسومه الرمزية، أول مُبشر بالمذهب الرمزي بالذات".

ويمكن إرجاع الأسس الفنية التي بُنيت عليها هذه المقررة برمزية "جبران" إلى ظاهرتين رئيسيتين:

أولاً: ما لمسهُ هؤلاء الدارسون في أدب "جبران" من شفافية الأسلوب والاعتماد على الكثير من التعبيرات المتحدثة كالذات المجنحة، خمرة السنين، وحقل القلب ومراشف الأرواح... إلى آخر هذه التعبيرات التي تقدم أساساً على تشبيهه اللامحسوس بالمحسوس، واستعارة المادي للمعنوي...

ثانياً: جنوح "جبران" أحياناً إلى الحوار والقصص الرمزيين متخذاً من الأشخاص والموضوعات، والحركة الحوارية والقصصية رموزاً لأفكاره ومشاعره، وهو ما لمسهُ هؤلاء الدارسون في أبرز كتبه نحو (المواكب النبوية آلهة الأرض، حديقة النبوية) وهم لا ينسون في هذا المقام أنّ "جبران" قد ابتدع بعض الرموز الرئيسية التي كثر ترددها على قلمه بشكل يخرج بها عن حدودها الدلالية المألوفة كالبحر وما في هديره الأبدي من العزم والعظمة والحنين، وهو رمز لما يختلج في الروح من نزاع بين المعروف والمجهول، ومن طموح إلى ما وراء الوجود "كالعاصفة" وهي ثورة عناصر فوق قوى الإنسان الجسدية والعقلية، فهي "جبران" عنوان الحرية المطلقة.¹

ومن هنا يمكن القول بأنّ "جبران" عمّد إلى الرمزية في كتاباته، تلك الرمزية الرومنطيقية التي تصوغ من العاصفة والخيال والموسيقى سلّم جمال يصعد فيها القارئ لتصيّد الأفكار والتمتع بروى الإيحاء من وراء أجواء لا تخلو من الضباب،

¹ - محمد فتوح أحمد، الحداثة الشعرية (الأصول والتجليات)، ص 119 - 120.

أجواء بعيدة الآفاق، يمتد فيها النظر إلى أن يحطّ على جبل رأسه في العلاء، وأصله في أعماق الأرض والواقع.¹

و/حدثه:

أمّا حادثة "جبران" فهي لا تقتصر على ما قام به من هدمٍ لأفكار الماضي البالية التي تُكبلُ الإنسان وتُعيق تقدمه وتطوره... ومن تبشير برؤيةٍ جديدةٍ يُصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله رؤيا تقوم على الحرية والحب والعدل والجمال، بل إنّ أية نظرةٍ إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصةً إذا لم نُدرك أنّه كان إيذاناً بثورة الحادثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول "أدونيس": "تبقى أهمية "جبران" الأولى في أنّه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية...". ولذلك يعتبره "أدونيس" (مؤسساً لرؤيا الحادثة، ورائداً أول في التعبير عنها).

وعلى كلّ فإنّ حادثة "جبران" تقوم على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مُسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء وهو ليس من يلتمّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة ويجّود في سكبها، ويُقيم لها وزنها، بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص في الأعماق، هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف "جبران" "لابن الفارض".²

وكان "جبران" يعني من هذا كلّه، أنّ ثورته الحداثيّة على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة، والأوزان الموروثة تهدمٌ لكي نبني، وكان يدرك أنّه لا بُدّ للمجددين

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 241.

² - يُنظر، بريك نزار هنيدي، الأجنحة المنكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص 33-34.

من امتلاك مواهب جبارة لانجاز حداثتهم (أمّا الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمر كيما تبني بناءً نبيلًا).¹

ومن هنا يمكنني القول بأنّ أدب "جبران"، امتاز بقناعة على الصدق الشعوري، والانفعال الحاد، والاعتماد على بساطة الأداء وقوة الإيحاء، وهو ذو أسلوب تصويري ينتزع صورته ومشاهدته من الطبيعة، وهذه مزية تفرّد بها "جبران" في أدبنا المعاصر، وقد أسعفته في ذلك مآكث المصورة القادرة على خلق الصور الرائعة، وإنّا لنلمح أثره واضحًا في الشعراء الآخرين بصفة عامة وفي "الشابي" بصفة خاصة كيف لا وهو تلميذه النجيب - هذا الأخير الذي زاد في مطالعته، وعكف على كتبه ولولا خشية الإملال، والإطالة، لعرضت لكم أمثلةً عديدة للصور والتعابير الجبرانية، في شعر "الشابي"، وبعضها أصبح أبياتًا قائمة بذاتها.

يقول "جبران":

"مَنْ يهوى النور فالنور يهواه".²

خامسًا:

• لغته وأسلوبه:

1- لغته:

استطاع "جبران خليل جبران" بلوغ إيقاع أكثر قدرةً على تجسيد حساسية حديثة، فعلى الرغم من تأثره الشديد بالكتاب المقدس، بنبرته التي طال عليها العهد، استطاع تحويل اللّغة الشعرية إلى سياقها الصحيح في الزمن المعاصر لا من تجربته اللّغوية فحسب بل كذلك عن طريق إدخال إيقاعات أكثر بساطة ولُيونة من إيقاعات الشعر العربي الموروث... فقد كان مفهوم "جبران" عن دور اللّغة في

¹ - المرجع نفسه، ص36.

² - خليفة محمد التليي، الشابي وجبران، ص53.

تحويل الشعر مفهومًا حديثًا ناضجًا: (حياة اللّغة... رهن خيال الشاعر...)
و(الوسيلة الوحيدة لإحياء اللّغة هي في قلب الشاعر، وعلى شفثيه وبين أصابعه).

فالشاعر لا يطلب في اللّغة إلاّ الروح و(الجوهر)، فقد كان اعتقاده بحيوية اللّغة المحكية مصحوبًا بالتجريب في هذا المجال، وقد جلب هذا على "جبران" نقدًا سلبيًا من عدد من الكُتاب في الوطن العربي وهذا نقد معمم بشكلٍ غير مسؤول على الشعر المهجري عمومًا، ولم يكن "جبران" الوحيد بين أدباء جيله الذي حاول توظيف لغة جديدة في التعبير الشعري كذلك حاول "شكري" ولكنّه أخفق في مسعاه لإدخال ألفاظ لم تكن مستعملةً من قبل في الشعر العربي.¹

فالشعر هو قولٌ لا يمكن للّغة الكلام العادية أن تقولهُ، وهو ما يعبر عنه "جبران"² في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنيةٌ لا ترتضي الألفاظ ثوبًا أغنيةٌ تقطن حبه قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الجبر على الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عمّا يحسّه الشاعر ويراه، لذلك لأبدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه "جبران" فقال: (ففي العربية خُلقت لغةٌ جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدًا بالغًا من الكمال، لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللّغة).

ذلك أنّ مجال الشعر هو "الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبر عنه، ولم نجده حتى الآن" حسب تعبيره.³
لذلك فقد كانت ألفاظ "جبران خليل جبران" باللّغة فتجيء مشحونة عادةً بمحتوى عاطفي يمنحها قوةً وتأثيرًا مباشرًا، ذلك لأنّه يجيد استخدامها ببداهة وفنية، فعلى الرغم من الأخطاء الموجودة هنا وهناك في إنتاج "جبران" إلاّ أنّه ذو هيمنة

¹ - سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص141.

² - بريك نزار هنيدي، الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران مع مقدمة عامة ودراسة تحليلية، ص36.

³ - المرجع نفسه، ص36-37.

كبيرة على اللغة، كما إنَّ حصيلته من القاموس الشعري تتميز بإيحائية وانتقالية هي من أفضل ما عرفته العربية الحديثة، إنَّه يكشف عن ولع الألفاظ الرومانسية الموغلة في الزمن، كما يحدث عندما يحاكي لغة الكتاب المقدس ولكن أيضًا عن ولع بالواقع، أيضًا عندما يحاول انتقاء مفردات من الكلام العادي، وهاتان الصفتان، الرومانسي البعيد والواقع من خصائص الرومانسية.¹

والنقطة الأخيرة في لغة "جبران" هي ما يظهره من انتقال سهلٍ من الإنجليزية إلى العربية والعكس... ولكن فيما يتعلق بلغته بشكلٍ عام، يجب القول إنَّه بسبب ما تنطوي عليه مواضيعه العامة من صفة شمولية وروحانية، يبدو أنَّه اضطرَّ إلى أن يختار قاموسًا شعريًا أقل ترسُّخًا في المصطلح الشعري ممَّا قد يختاره شاعر حديث واعٍ لقضية الحداثة في اللغة. إنَّ الفرق بين الوعي اللغوي في الشرق ومثيله في الغرب (وهو ما كان يعيه "جبران" تمامًا، كما سبق القول).

كان لأبْدٍ من أن يخلق أمام "جبران" مشكلة (الألفاظ الأساسية) الضارية في اللغة وعدم إمكان ترجمتها من لغة ثقافة معينة إلى لغة ثقافة أخرى مختلفة تمامًا. وبهذا تصبح هذه القضية قضية استشارة التعاطف (في أبناء اللغة المترجم إليها) منحصرةً في معاني لفظية أو ألفاظ أساسية في اللغة الأولى، لكنَّ "جبران" استطاع أن يَسُدَّ الفجوة فيما يبدو لأول وهلة غير قابل للسدِّ وقد يعزى ذلك أيضًا إلى أن حساسيته قد تأثرت وانطبعت إلى حدِّ كبير بمصدر معرفة شمولي هو الكتاب المقدس.²

¹ - سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 142.

² - المرجع نفسه، ص 141-142.

لذلك نجده يقول للمحافظين على اللّغة: "لكم منها ما قاله "سيبويه" و"أبو الأسود الدؤلي" و"ابن عقيل"، ومن جاء قبلهم وبعدهم، ولي منها ما نقوله الأم لطفلها، والمتميم لسكنة ليله".¹

2- أسلوبه:

لقد خدم "جبران خليل جبران" الشعر العربي بطرقٍ ثلاث: أولهما عن طريق نشره الشعري، وثانيهما عن طريق شعره، وثالثهما عن طريق كتاباته المتنوعة عن الشعر واللّغة والفن عمومًا- إنّ "جبران" قد كتب النثر بالدرجة الأولى، على الرغم من أنّ كثيرين ممن كتبوا عنه يعتبرونه شاعرًا لا بما كتب عن شعره موزون فقط، بل ببعض النثر الذي كتبه أيضًا، على الرغم من أنّ أغلب نشره شعري إلا أنّ بعضه أعلى مستوى من سواه.²

ففي حديثي عن أسلوب "جبران" سأعرض إلى أسلوبه الذي يدعى بحق "الأسلوب الجبراني" على حدّ تعبير "سلمى خضراء الجيوسي" في كتابها "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث".

إنّ تأثير هذا الأسلوب مباشرةً بأسلوب الكتاب المقدس مسألة أثبتتها كثيرٌ من الكتاب حتى غدت معرفةً شائعةً، فذلك الانسياب التوراتي المنسرح، وذلك الإيقاع المتميز... إضافةً إلى الموقف الوعظي التلقيني، كلّها تذك بالكتاب المقدس³، ذلك لأنّ التوراة في ترجمتها العربية هي المكون الأولى لأسلوبه الكتابي وهذا راجعٌ إلى توجهها إلى الأساطير و الميثولوجيا، كذلك كانت قد ترجمت باللّغة العامية فلمّا

¹ - محمد عبد المنعم خفاجي، حركات التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 1990م، ص178.

² - سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص134.

³ - المرجع نفسه، ص135.

التزم بها المهجريون بصفة عامة لم يستطيعوا إعطاء الأسلوب¹ العربي حقه، كما قيل بأن "جبران" كان الوريث المباشر "لمرّاش" - أحد أوائل الكتاب المسيحيين - وهنا بطبيعة الحال العامل وراثي - الذين تأثروا بشدة بالكتاب المقدس، ومن المؤكد أنّ ثمة حاجة إبداعية حقة وراء تجربة "جبران" لروح جديدة، وأسلوب جديد في الأدب، فهي علامة تحوّل وتغيّر جذري لا في المفهوم الأدبي وحسب، بل هذا أكثر أهمية بكثير في الحساسية الأدبية في ذلك العصر.² ولاشك في أنّ تمرّده وخصاله العديدة الأخرى قد أسهمت في تكوين أسلوبه الخاص به³، حيث اعتمد في ذلك عدة أساليب للتعبير عن فكرة منها: أسلوب القصص القصير، أسلوب التأمل، وأسلوب المثل وكان في كل ما كتب متأثراً بالتوراة والإنجيل فكراً وأسلوباً وسوف نطلعكم على ما توفر لدينا من مميزات على مستوى اللون القصصي والكتابي وهو كالآتي:

1- اللون القصصي:

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ "جبران" لم يُعدّ لأن يكون قصاصاً بكل ما في الكلمة من معنى فقَصَصُهُ تُسيطر عليه طبيعة الفنان الوجداني المُرهِف الحسّ والشعور على حدّ تعبير "ميخائيل نعيمة"، وطبيعة المُرشِد والمُصلِح والواعظ، ولهذا لم يهتم "جبران": للعقدة والسرد والسياق بقدر ما اهتم⁴ للمغزى وللبَثّ الشعوري، وتركيب الصوّر، واختراعات الخيال الخلاق الساحر، فقد رمى في قصصه إلى النقد المتكهِم، ومزج أقاصيصه بأرائه الاجتماعية، وجعلها مركباً لانطلاق خياله،

¹ - أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية (خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث)، دار الكتاب اللبناني، ط 2، 1985م، ص 295.

² - بتصرف، سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 135.

³ - المرجع نفسه، ص 139.

⁴ - حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 226.

وتلوينات فنّه، وملأها كذلك بالعناصر المؤلمة من الحياة التي كان نظره دائم الامتداد إليها، رغبةً منه في تفجير شعوره على قلوب المتألمين ورغبةً منه في إطلاق صوته في وجوه المتكبرين والمستبدين الذين لا يشعرون بشعور البائسين، وهكذا كان قصصه دروسًا ورسومًا، ورحلات فنيّة تنطلق من الواقع وتهبط في اللاواقع.

2- الأسلوب الكتابي:

كان "جبران" فيلسوفًا في بُرد شاعر، سكب أفكاره في قالب جبراني خاص يقوم على التلوين الكتابي والتقطيع الموسيقي، والابتكار البديعي، والانطلاق الخيالي الذي ينطلق بالصور الجديدة التي لا يحلم بها غير "جبران"... وهكذا كانت كتاباته عمقًا من الفكر في عالمٍ من السحر، ولكل شيء في كتابة "جبران" سرٌّ وسحرٌ للفظّة المفردة، والعبارة المركبة، لتقطيع العبارة، وتآلف الحروف للموسيقى المتصاعدة من كل حرف وكل لفظّة، وكل عبارة، و"جبران خليل جبران" من أقدر من اختار لفظّة تعبيرية، وركبَ جملةً خياليةً موسيقيةً، وهو بلا شك ساحرٌ بلفظه وعبارته ومجمل كتابته.¹

وهذا ما دعى "نعيمّة" إلى القول بأنّ: "أسلوب "جبران خليل جبران" ونغمته ودقة ومضه، قد أعطتْنا مفهوميةً جديدةً عن الجمال في التنسيق والبيان، فنثره الشعري المتزرق المتناسب المتوازن، المتجاذب، قد جعل القافية المتتابعة في أعيننا قذى، وزينتها في آذاننا دندنة ونقنقة، فيا ليت شعري، هل من يقرأ قصيدة "جبران" بعنوان "أيّها الليل" يقول:²

"يا ليل الشوق والصبّابة والتذكّار".

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 140 - 141.

² - ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، ص 223.

ذكرت هذا البيت لأنّ البيتين السابقين قد ذكرتهما سابقاً.

وعلي كذلك أن نضيف إلى ذلك كلّ حقيقة مهمة جداً هي موهبته الفريدة الخاصة واعتناقه مثلاً محدّدة بعينها، وعقيدة معينة يدافع عنها، كانت هذه المثل العليا جديدة في سياق الإطار الفكري العربي الحديث ولكي يُعبّر عنها كان عليه أن يُبدع لغته الخاصة، وأساليبه، على غرار أن "جبران" كان يتمثّل بكل ما استطاع من سرعة، مواقف وآراء وأفكار كثيرة مختلفة من المصادر الغربية والشرقية التي انفق له الاتصال بها، كانت عبقرية "جبران" المتوقّدة لا تعرف التردّد أو التعثر¹، وكانت الكلمات والتعابير والمواقف المختلفة و الأجناس الأدبية المتعددة التي طرقها تناولتها يده بالسحر فتحوّلها أدباً.

ولقد أحسن "حاوي" في تقسيم "الأسلوب الجبراني" إلى إيقاع، ولغة وصور، أمّا إيقاع أسلوبه النثري فقد حتمه أمران: فأما رغبته في الوعظ ورومانسيته، أما رغبته في الوعظ فرتباً هي التي دفعت به إلى الكتابة بالأسلوب والتوراتي "أي باستخدام أساليب الاستفهام والنداء والتكرار وأمّا العنصر الرومانسي فهو الذي فرض ذلك الأسلوب الحرّ الذي يبدو طبيعياً جداً في أسلوبه النثري...، ولكن "جبران" إذا كان يكتب نثرًا فقد استطاع التحرّر مباشرةً من أي قيود تربطه بالإيقاع الشعري الراسخ، ولعلّ نثره الشعري بما فيه من انسياب متموج وانبساط في الإيقاع في سلاسة عجيبة، ولكنها مصحوبة بحيوية تكاد تكون مشحونة شحناً قوياً... ومع ذلك فيمكن أن يقع ذلك النثر على السامع وقوع المزمور وسحره، وعندما تقوى عواطفه وترتفع يكتسي هذا الإيقاع صخباً مثيراً ودفقاً مناسباً، ويصبح قادراً على التدفق بسرعة فائقة، ومن خصائص "جبران" كذلك استخدام التوازي والتضاد".²

¹ - سلمى خضراء الجبوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 139 - 140.

² - المرجع نفسه، ص 140 - 141.

كما لا ننسى بأنّ "جبران" يلجأ إلى الصورة كوسيلة أخرى كذلك معتمداً في ذلك كثيراً على ما يدعوه "فوكس" (كلمات قيمية) أي الكلمات التي تمثل "مفاهيم أو مشاعر تعدّ ذات قيمة في كل زمان ومكان" مثل الجمال، الحب، العدل والحياة والموت... الخ، فهو كان يستخدمها بأسلوب رومانسي حق مليء بالصور وأحسن الأمثلة.¹

على هذا ما كتبه "جبران" في قصيدته الموزونة "المواكب" على حدّ تعبير "حاوي".

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى الفكرة التي دعا إليها "جبران" بأنّ "الشاعر هو محرّر اللّغة فكرةً جذابةً مشوقةً فإنّ ذلك لا يعني أنّ محرّر اللّغة الأوحّد بالضرورة أن يكون الشاعر" فهو بهذه الرغبة الجارفة في أن يُنشر في العالم مبدأه في الحرية والحب الأشمل، كان في الواقع يكرّر نفسه، ويميّع أسلوبه على حدّ تعبير "سلمى خضراء الجبوسى". أمّا فيما يخصّ الخدمة الثالثة التي قدمها للشعر العربي هي آراءه عن الفن والشعر وحول دور الشاعر في تغيير لغة عصره، فالشاعر في نظر "جبران" هو حلقة وصل بين هذا العالم والعالم الآخر ونبع صافٍ وشجرةً مزروعةً على ضفة نهر الجمال، وروحٌ مستوحدةٌ، وهو إلى ذلك ليّن، هيّن عاشقٌ للطبيعة، يسهر الليل ينتظر ربة الشعر... وثمة نوعان من الشعراء في رأي "جبران": شاعر ذكي له قدرةٌ على تمثيل شعر الآخرين، والآخر ملهم حتى قبل أن يولد، والشاعر الحق لديه هو الذي يدخل هيكل روحه الخاص ثم يخرج منه وهو ينطق بكلمات وعبارات جديدة وتتجدّد كل يوم. وعليه يمكن القول لقد غير "جبران" الحساسية الأدبية في عصره، فقد كانت شخصيته أقوى شخصية أدبية في زمانه، وربما كان أثره على أشده في الثلاثينيات لا بسبب وفاته عام 1931م وحسب، فبعد تجربة

¹ - ينظر، سلمى خضراء الجبوسى، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 142-143.

"جبران" غدا من الممكن التجريب على أي مستوى، وفي أي مجالٍ من مجالات الأدب لأنه استطاع تحرير الروح المبدعة.¹

سادساً:

• آثاره ومؤلفاته:

لم يستقل "جبران خليل جبران" بمصدرٍ ثقافي معين، بل عدّد مصادره الثقافية ونوعها فهي عربية أمريكية، وإنكليزية، وفرنسية، إنها بصورة عامة شرقية وغربية، واستوت له مواهب كبيرة، وتجارب ذاتية عميقة، وغنية وما كان يقرأ ليخترن أو يكتفي، أو يبادر مباشرةً إلى الكتابة بل هو يُغني بفكره الذاتي ما عرفه أو استوعبه في أكثر من لغة، وينطلق بعد ذلك إلى الكتابة والتأليف، وتتعدّد مؤلفاته خلال سحابة عمر ما بلغ نصف القرن، أو تجاوزه لسنة واحدة، وهذه المؤلفات هي كالآتي:

1- مؤلفاته العربية:

2- الموسيقى: طبع هذا الكتاب سنة 1905م، وهو يتضمن جملة معارف عن الموسيقى، وعن تأثيرها العميق وإبداء الإعجاب بأنواع من الألحان مثل التهاوند والأصفهان، والصبّا، وغيره.² وهو كُتِب وضعه "جبران" في صبّاه في نيويورك، "وطواه على تأملات في الموسيقى، وطاقاتها التعبيرية والتأثيرية" على حدّ تعبير "حنا الفاخوري"، فهي "حديث القلوب... وهي كالحبّ عمّ تأثيرها الناس، فترنم بها البرابرة في الصحراء، وهزّت أعطاف الملوك في الصُّروح" وفي هذا الكتاب نلمس الأسلوب الجبراني في فجر تفتحه، إذ يقول "ميخائيل نعيمة": "وأنت إذ تطالع

¹- يُنظر، سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 147- 148.

²- يُنظر، كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 363- 364.

"الموسيقى" يستوقفك فيها أول ما يستوقفك نمط في الكتابة يتميز بسهولة التعبير وحلاوة التلوين، ولطافة الوقع، وصدق النية وسلامة الذوق، وعمق الإحساس...¹

3- عرائس المروج: طُبع هذا الكتاب عام 1906م²، وانطوى على ثلاثة قصص: "رماد الأجيال" و"النار الخالدة" و"مرتار البائية"، و"يوحنا المجنون".

أمّا القصة الأولى فمسرحتها هيكل بعلبك، وبطلها عاشقان عاشا سنة 116 قبل الميلاد ثم عادا إلى الحياة سنة 1890م للميلاد ليواصل حياة العواطف التي رافقت روحهما بعد الوفاة، وهكذا أشار "جبران" إلى أخذه بعقيدة تناسخ الأرواح.

أمّا القصة الثانية فهي قصة فتاة قروية أغراها رجلٌ من المدينة فحملت منه طفلاً وولدتها فنبتها هي وطفلها، فما كان منها إلا أن ارتمت في أحضان الدعارة وما كان "جبران" إلا أن ثار على وحشية الرجل.

أمّا القصة الثالثة فقصة راعٍ حبس عليه الرهبان عجوله لأنها ارتعت من زرع الدير، فيثور "جبران" على الرهبان، ويعمل على إظهار الراعي بمظهر المظلوم الذي يستحق الشفقة³، حيث يمجّد فيه الكاتب - "جبران" - الحبّ في هذا الكتاب، ويرى فيه القداسة.⁴

4- الأرواح المتمردة: صدر هذا الكتاب عام 1908م، وهو مجموعة مقالات ذات اتجاه وجداني، ويؤكد المؤلف على مبدأ التحرر، ويرفض بصورة عنيفة النفاق، وتزييف تعالم الدين، وتعرض هذا الكتاب لحملة ظالمة حين صدوره حيث عمّد رجال الشرطة مع بعض رجال الدين إلى إحراق نسخة في إحدى ساحات بيروت⁵

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 227-228.

² - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 364.

³ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 227 - 228.

⁴ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 364.

⁵ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 364.

وفي الكتاب أربع قصص هي: "السيدة وردة الهاني" و"صراخ القبور" و"مضجع العروس" و"خليل الكافر".¹

ففي الرواية الأولى استمد "جبران" أفكاره من أوليات يعترف الناس بها لكنهم على خوفٍ- هي تحرير العاطفة الوضعية في نفس الفرد الواحد- فالذي يقرأ هذه القصة يظن أنّ "جبران" مثلاً يخالف شرائع الله ويحسن للناس حالة المرأة الخائنة التي طأقت زوجها لتقتن بغيره.² والقصة شكوى وتظلم وثورة على السلطة التي تكره على الزواج إكراهًا.³

أمّا حكاية "صراخ القبور"، فهي خلاصة قصيرة لما يستره المحامون والقضاة من أحكامهم تحت ستور الألفاظ الكثيرة والجمل الطويلة⁴- فهي قصة تدور حول- رجلين وامرأة- حكم عليها الأمير بالقتل ظلماً وطغياناً، وفيها ثورة على الشريعة والإقطاعية.

أمّا الثالثة- "مضجع العروس"- فتروي أنّ عروسها أكثر تمرّداً من أبطال سائر الروايات لأنّه كسرت القيود الظالمة والظالة قبل أن تفرغ يد الجامعة في حبكها، وهي قصة فتاة غشها رجلٌ غيّى ففصلها عن حبيبها

حتى يقتن بها، وفي ليلة الزفاف عرفت الحقيقة، وقد طعنت نفسها وحبيبها بخنجر كانت تخبئة في ثيابها وفي القصة ثورة على التقاليد وعلى رجال الدين.⁵

أمّا الرابعة- "خليل الكافر"- فهي أشبه بشيء حكاية "يوحنا المجنون" في كتاب "عرانس المروج" والفرق بينهما أنّ "يوحنا" مات مغلوباً، أمّا "خليل" فعاش

¹- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص228.

²- جبران خليل جبران، الأرواح المتمردة، دار العرب للبستاني، 20 ش الفجالة، القاهرة، د.ط، ص07.

³- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص228.

⁴- جبران خليل جبران، الأرواح المتمردة، ص08-09.

⁵- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص228.

منتصرًا على أعدائه التعساء والمساكين.¹ وهي ثورةٌ على ظلم الحكام وعلى الرهبان، ودعوةٌ إلى الحرية الشاملة.²

5- الأجنحة المتكسرة: (في نيويورك، مرآة الغرب 1911م، ص146، وط2 كفرشياما، المطبعة الرشيدية 1987م، ص124)³، لقد انطوى هذا الكتاب على قصة "جبران" في حبه الأول وكيف حالت التقاليد، وسلطة رجال الدين دون اقتران الحبيين، فاقتزنت الفتاة بابن أخي "المطران" عن غير حب، وكان في ذلك شقاؤها.⁴

6- دمعة وابتسامة 1914: (نيويورك، مطبعة الفنون 1913م، ط2، القاهرة، المطبعة الحديثة 1925 ص236).⁵ وقد تضمنت سِتًّا وثلاثين قطعةً نثرية وشعرية، ويغمر هذه القطع اتجاهين رئيسيين: صوفي وإنساني، وهو ينتهي بحكمة هي: "أيًا كان جوهر العالم فإنّه يبقى وطنًا واحدًا للإنسان"⁶، وقد نُشر بتقديم "تسيب عريضة".⁷

7- المواكب: قصيدة طويلة ظهرت سنة 1919م، وفيها نظرات فلسفية في أهم شؤون الحياة البشرية كالخير والشرّ، والدين والحق، والعدل وما إلى ذلك.

¹ - جبران خليل جبران، الأرواح المتمردة، ص10.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص228.

³ - يوسف حسن نوفل، موسوعة الشعر العربي الحديث والمعاصر، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005م، ص549.

⁴ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص228.

⁵ - يوسف حسن نوفل، موسوعة الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص549.

⁶ - كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص364.

⁷ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص181.

وفي هذا الصدد يقول "ميخائيل نعيمة": "انجرف "جبران" بتيّار "تيتشه" وما برحت معتقداته السابقة تشدّه إلى الوراء، فكانت "المواكب" نتيجةً لتلك الحالة القلقة التي أحسّها "جبران"...".

8- العواصف: صدر هذا الكتاب سنة 1920م، وفيه مقالات عنيفة مثل: "حفار القبور"، "العبودية" "يا بني أمي"، "نحن وأنتم"، "الأضراس المسوسة". والكتاب عاصفة هوجاء جارفة.¹

9- البدائع والطرائف: طبع هذا الكتاب سنة 1923م، وقد ضم مقالات ظهرت في كتب سابقة "جبران" وأخرى جديدة، وحوى رسوماً لمشاهير عرب، وتأكيداً لاعتقاد المؤلف بوحدة البشر والوجود²، كتب هذه المجموعة عندما كان ابن سبع عشرة سنة، وعالج فيها "جبران" فلسفته الشرقية في القطعات الشعرية والغنائية مصاحبةً بجانبها- كما ذكرت- رسوماً خيالية لشخصيات فلاسفة العرب الكبار أمثال: "ابن سينا" و"ابن المقفع"، و"الإمام الغزالي" وكذلك الشاعرة "الخنساء"... الخ.³

2- مؤلفاته بالإنجليزية:

1- المجنون "The Madman":⁴ ولم يلق نجاحاً باهراً، ظهر هذا الكتاب سنة 1918م، وانطوى على أمثال وتأملات في موضوعات شتى، و"جبران" يشعر فيه بالوحدة، ويثور على النافقين والضّالين⁵، وحكايات ساخطة وناقمة على الخبث والجهل.⁶

¹ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 229.

² - كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 366.

³ - محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، العدد السادس عشر، 2009م، ص 185.

⁴ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص 182.

⁵ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 229.

⁶ - كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 365.

2- السابق "The Forerunner":¹ ظهر هذا الكتاب سنة 1920م، واتخذ فيه

"جبران" أسلوب الأمثال أيضاً، وجعله "جبران" تمهيداً لكتاب "النبي".²

3- النبي "The Propfet":³ كتاب ظهر سنة 1923م، وهو كتاب "جبران" وهو

هدف حياته، بل هو القمة التي اتجهت إليها جميع قواه، وهو يقع في 28 فصلاً

في المحبة، والزواج، والأبناء، والعطاء، والغذاء والعمل، والفرح والترح، والمساكن،

والثياب، والبيع، والشراء، وما إلى ذلك.⁴

ونتيجةً لتأثر "جبران" بالفيلسوف الألماني "تيتشه" ولاسيما في كتابه (هكذا

تكلم زرادشت) فنسج "جبران" على منواله كتابه هذا "النبي" وهو عبارة فكره

الصافي، وأشعة خياله الوهاج، حيث فسّر فيه للناس: كيف يأكلون، يشربون وكيف

يولدون، يفرحون، يموتون في أمثال ومجازات ومواعظ بالتلوين الشعري والإيقاع

الموسيقي، والإيماءات الرمزية، والإشعارات المبتكرة، إلى جانب ما فيه من تصوير

الأفكار والأحاسيس المبهمة تصويراً أقل ما يقال فيه إنه مألوف.⁵

4- حديقة النبي "The Profet Jurdin": نشر هذا الكتاب سنة 1933م⁶،

وكان "جبران" يهدف فيه إلى معالجة علاقة الإنسان بالطبيعة، كما كان ينوي أن

يضع كتاباً في (موت النبي) ويعالج فيه علاقة الإنسان بالله.⁷

¹ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص 182.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 229.

³ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص 182.

⁴ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 229.

⁵ - يُنظر، محمد نجم الحق الندوي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، ص 186.

⁶ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص 366.

⁷ - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 229.

- وما أتاح الموت "جبران" أن يُنهيه وأنجزته بذلك صديقه الأمريكية "بربارة يونغ" وبطل هذين الكتابين - "النبي" و "حديقة النبي" - واحد وهو المصطفى.¹
- والظاهر أن "جبران" كان يفكر في هذا الكتاب منذ حدثته، وأنه بدأه باللّغة العربية ثم عدّل عنها إلى الإنجليزية، حيث ظلّ خمس سنوات يكتبه، وقد تُرجم الكتاب إلى نحو عشرين لغة.²
- 5- رمل وزبد "Sand and Foam":³ و صدر هذا الكتاب سنة 1926م، وهو مجموعة خواطر تكثر فيها الأمثال والحكم، وتمثل صلةً بين كتابي "جبران" "النبي" و "يسوع ابن الإنسان"، وينعتق فيها "جبران" من تأثير الفيلسوف الألماني "تيتشه"، ويبرز تأثره بالشاعر الأمريكي "وليام بليك"، ويعطي عميقاً في معنى المحبة.⁴
- 6- يسوع ابن الإنسان "Uesus Son of Mana":⁵ ظهر هذا الكتاب سنة 1928م، ويقدم فيه "جبران" المسيح كما يراه، ويؤمن به، فما هو يعطي من ضعف، ولكّته يقوى ويتحدّى حتى وهو على الصليب...⁶
- 7- آلهة الأرض "The eart gods": كتاب ظهر سنة 1931م، وهو آخر ما كتب، ظهر له في حياته وقد قيل عن هذا الكتاب بأنّه مسرحية تبرز قوة الحبّ الموحدّة بين البشر.⁷

¹- يُنظر، كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص366-367.

²- يُنظر، حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص229.

³- عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص347.

⁴- كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص366.

⁵- عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص347.

⁶- كاظم حطييط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج2، ص366.

⁷- حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص230.

8- التائه "The Wanderer":¹ وظهر سنة 1932م²، بعد وفاة "جبران خليل جبران" وفيه نحو خمسين قصة من قصص التائه. يظهر فيها المؤلف عيوب الناس بطريقةٍ ساخرة، وهذه الحكايات عميقة المغزى والأبعاد.³

إلى جانب كل هذه المؤلفات المتنوعة بين العربية والإنجليزية كذلك كان "جبران خليل جبران" غير هذه المؤلفات مقالات عديدة ومتنوعة أذكر منها:

- صحيفة مطوية، الجمال، إلى السوريين، ما أكرم الحياة، الناس أربعة رضا توفيق بك، أحب بلادي: التي يقول فيها:

"أحب بلادي وللحب ألف عين ترى، وألف أذنٍ تعي".

كذلك يقول: "أحب بلادي مُبصرًا والحب إن فقد بصيرته ينقلب جهلاً والجهل في الحب يضرُّ المحبَّ ويغشُّ المحبوب".⁴

أمّا فيما يخص رسائل "جبران" التي تستوي في أكثر من مجال أرسلها "جبران" إلى عدد من أصدقائه وأبرزهم الكاتب والمفكر "ميخائيل نعيمة" والأديبة "مي زيادة" و"أمين زيدان".⁵

أمّا مجموعة رسوم "جبران" فقد قام بجمع هذه الرسوم وتصنيفها بعض الفنانين اللبنانيين أمثال: "مروان القيسي" وآخرين.⁶

إلى غير ذلك من آثار وأعمال كتابية صغيرة وغيرها كذلك من الخواطر والآراء وأقوال وأمثال وأحاديث، ومواقف، ومقطوعات وهذا يدفعني إلى القول بأنّ معطيات نتاج "جبران" متنوعة فهي درس وتعليم وتأمّلات وتآلفات صوفية

¹ - عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 347.

² - حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص 230.

³ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج 2، ص 366.

⁴ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 46.

⁵ - كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي الحديث، ج 2، ص 347.

⁶ - المرجع نفسه، ص 367.

وانطلاقات فلسفية ورؤى شمولية سلسلها الكاتب اللبناني العربي عبر أطوار حياته فهي تاريخ ذاته في مختلف نزعاته وتطلعاته، وطموحاته، وتوراته، أو فحوى سيرته ومواسمها المتتابعة، وتؤلف هذه المعطيات في تفرعها وتنعها وحدة متكاملة، إنها وبحق آثاره في اللغتين العربية والإنجليزية الخالدة.

سابعاً - وفاته:

أخذت منه العلة يوماً بعد يوم، يمكّنها من صحته وقوّته استمراره في العطاء ودون مللٍ أو كلال، حتى انطفئ سراج حياته في العاشر من نيسان سنة 1931م¹، حيث توفي "جبران" مهاجراً في أحد مستشفيات نيويورك²، وهناك من يقول بأنّ جثمانه نقل بعد أربعة أشهر ليوارى في ثرى وطنه لبنان على حين "أنطوان القوال" الذي جمع وقدم المجموعة الكاملة لمؤلفات "جبران خليل جبران" قال بأنّه في 21 آب من سنة 1931م نُقل رفاته إلى "بشري"، مسقط رأسه ليرقد بسلام في دير "مارسركيس"، المكان الذي كان يحلم بالعودة إليه.³

حيث كان يقول في الخامس من أبريل عام 1931م: "أعرف مصيري أعلم أنّي لن أغادر هذه الأرض الغربية والجميلة قبل أن تشهد الملائكة على اكتمال عملي".⁴

ومن خلال ما تقدم يمكنني القول بأنّ "جبران خليل جبران" لا يزال، وبعد رحيله، يشغل الناس بأدبه وفنّه، كما كان يشغلهم في حضوره، فالآداب العربية لم تعرف حتى الآن أديباً كان له أثرٌ كالذي "لجبران" إذ أنّه فاصل تاريخي حاسم، كما يقول "جميل جبر"، بين التقليد والتجديد، انطوى بوجوده عهد وبدأ عهد.

¹ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 15.

² - إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص 123.

³ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 15.

⁴ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (2 الرومانسية الغربية)، ص 182.

إنّ "جبران" كما عرّفه: "حنّا الفاخوري": "عبقريّة خالدة تخطّت حدود الزمان والمكان، وكان لها تحت كل كوكب مملكة وسلطان نطقت بالكلمة، فردّدها الكون بكل لغة ولسان".¹

وهكذا استطاع "جبران"، الشاعر والفنان، أن يكون النفحة الأولى في حياة الأدب العربي الحديث وأن يجعل للأدب العربي جذوراً قويةً باقيةً في حقل الآداب العالمية الخالدة، ويُجَعَلَ من بين حملة الأقلام العرب أديباً عالمياً خالداً يفاخر به الشرق والغرب على السواء، وأن يمجد عهد الرسالات التي ظهرت في الشرق قديماً بنشر الإيمان برسالة الشرق الروحية التي يمكنها أن تقود أبناء الحياة إلى سعادة الحياة على حدّ تعبير "عيسى الناعوري" في كتابه (أدب المهجر).

¹ - أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ص 15.

ساعدوني على إحصاء المفردات وجمعها،
وأحضروا لي المصادر والمراجع رغم العناء
إلى الذين:

يعشقون وطنهم بكل جوارهم
إلى الذي:

سيرافقني دربي ويكملُ معي مشوار الحياة
"عبد النور"

إلى من رسموا ذكرى لا تُمحي، ونقشت أسماءهم
على قلبي بحروف من ذهب: حدّة، حليلة،
خديجة، فطيمة، زينب، نوال، ريم، حنان،
مهديّة، سهير، ليلي، هاجر، سميرة، وكل من
يحملهم قلبي وإن لم يخطهم قلبي إليكم
جميعًا.

وأهدي هذه الدراسة كذلك إلى بلادي، وإلى
كل من طلب العلم راجيًا من الله عزّ وجلّ النفع
والانتفاع به في الدارين، وإلى أساتذتي: عبد
الحميد المختار والمشرف المحترم على هاته
الرسالة "تيس ناصر محمد الحسني"
والكلمات ظل فقط لوافر الامتنان...

وقد
حملتني
شكرًا
طويلاً
لأ
ثقيلاً
أطيق به
حراكاً

المتنبي

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

ها أنا أصل إلى ختام دراستي هذه التي مكنتني من اكتشاف أشياء كنت أراها على ما فيها من التعقيد لا يظهر إلا بعد جهد وعناء كبيرين، ومكنتني كذلك من الخوض في أعماق هذا الموضوع، فمن خلال تتبعي للبيئة الطبيعية في شعر "جبران"، أول ما يمكن استنتاجه من هذه الرسالة هو أنّ موضوع البيئة الطبيعية لم يكن في شعر المهجريين فحسب بل كان موضوعاً عامّاً في الشعر العربي كافةً على مرّ العصور والأزمنة وأنّ "جبران خليل جبران" قد عانى مرارة الأيام، والبعد والحرمان جزّاء هجرته قاطعاً بحاراً ومسافات إلى وطن كلّه كبرياء وكلّهُ سلطة وهيمنة ونفوذ، يختلف كل الاختلاف عن ذلك الوطن، عن تلك الأم لبنان وقد انعكس حبه لوطنه هذا وشوقه الدائم إليه والشعور بالغرابة عنه - في وطن لم يكن سوى شيطان متجبرّ - جلياً في شعره الذي سكب فيه أروع التعابير، وعزف فيه أعذب الألحان، وتغنّى بأجمل ما يغنى عن الأوطان فأحبّ وأجاد ومن هنا أكون قد استنتجت مدى تأصل شعر الطبيعة لدى "جبران خليل جبران" إلى حدّ كبير جداً.

وبالإضافة إلى هذا فقد توصلت في هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج تمثلت في:

- أرى بأنّ "جبران خليل جبران" قد مال إلى استعمال المعنى المجازي في الألفاظ الدالة على الطبيعة الساكنة أكثر من الألفاظ الدالة على الطبيعة المتحركة (الحية) وذلك لكثرة تكرارها وتعلق الشاعر بالبيئة الساكنة حيث السكون، والحرية والعدل والهدوء الذي يتناسب وحالته النفسية التي يعيشها.
- أرى بأنّ الطبيعة ومظاهرها موجودة بكثرة تكاد تلمس أعمال "جبران خليل جبران" وهذا دليل على خصوبة الشعر من ناحية، وبيان النزعة الرومانسية لدى الشاعر فقد كان عاشقاً للأزهار، والألوان كما ظلّ ينقل تجربته الشعورية في الغربة.
- بدا لي كذلك أنّ للطبيعة وألفاظها دوراً كبيراً فيتطور الشاعر فنياً، فقد ساعدته على التسريح بخياله في هذه المناظر، وإتقان الوصف بطريقة شيّقة وجد ظريفة للقارئ، وألفاظ سلسلة سهلة، لذلك لا تخلو المناهج من قصائد الشاعر.

• كشفت كذلك هذه العبارات والألفاظ الدالة على الطبيعة التي استخدمها "جبران" عن أسلوبه الذي ابتعد كلَّ البعد عن التعقيد واتسم بالبساطة والرقّة والشفافية، وذلك كونه اعتمد على ثقافته العالية فتحدث عن عدة مواضيع بطريقة فلسفية.

• وقد اخترت "جبران خليل جبران" عن غيره من أقرانه، ليس لعدم جودتهم أو إبداعهم، أو لأنهم أقل منه شأنًا، لا بل مجرد رغبةٍ من نفسي أو كما يقال "حاجةً في نفس يعقوب" للغوص في مثل هذه الشخصية الفدّة، والبحث في أعماقها، والكشف عن مكبوتاتها، وما لها وما عليها، وما طبيعة هذا الشعر الذي قيل معتمدةً في ذلك على نماذج عديدة منها قصيدته (المواكب) وهي أوضح دليل على ما أقول و(البلاد المحجوبة) وهي دليل على حبّه لوطنه وتعلقه به، وهي نزعة قومية بحثة.

وهذا بطبيعة الحال يُثبت أنّ "جبران خليل جبران" شاعرٌ شغوف ولهان صبّ موع بالبطبيعة وكأنّها الأمّ الرعوم، وما هي إلاّ طبيعة لبنان، وإنّ المتصفح لقصائد "جبران" سيدرك بالفعل أنّ هذا الشاعر قلّمًا نجد له مثيل.

وفي النهاية ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأنّ هذه هي الملاحظات والنتائج التي خرجت بها من هذه الرسالة، وهذا ما استطعت الوصول إليه، فإنّ كنت قد وقّيتُ حقه فذلك من أهدافي ومُرادي ومبتغاي وأجهدت نفسي لأجله، وإنّ كان غير ذلك فحسبي أنّي لم أدخّر جهدًا أو طاقةً في سبيله فإنّ أصبتُ فمن الله جلّ شأنه وعلا، وإنّ أخطأتُ فمن نفسي والله هادي إلى سبيل السواء.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته